التعليق على رسالة ابن رجب

غاية النفع في شرح حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع

أ. أناهيد بنت عيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزّ وجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

فهرس دورة الصّحة النفسيّة مطلب شرعيّ

وشرح رسالة: غاية النّفع في شرح حديث:

(تَمْثِيلِ اَلْمُؤَمَّنِ بِخَامَةِ اَلزَّرْعِ)

اللقاء الأوّل ٤

الصحة النفسية مطلب شرعي ٤

اللقاء الثّاني ٢٩

(١) شرح رسالة غاية النفع ٢٩

اللقاء الثّالث ٥٢

(٢) شرح رسالة غاية النفع ٥٢

اللقاء الرّابع ٧٥

(٣) شرح رسالة غاية النفع ٧٥

اللقاء الخامس ٩٩

(٤) شرح رسالة غاية النفع ٩٩

اللقاء الأوّل

الصحة النفسية مطلب شرعي

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من أهل الإيمان، أهل اليقين، أهل النفوس المطمئنة، اللهم آمين.

مبدأ لقاءاتنا اليوم سيكون بعنوان: "الصحة النفسية مطلب شرعي" سيكون اليوم انطلاقة لهذا المعنى، وبقية الأيام سنكمل بيان هذه القضية بقراءة رسالة لابن رجب، نكمل معنى الصحة النفسية، وستزيد الرسالة لنا بيان هذا الشأن؛ كيف يتحصل المؤمن على الصحة النفسية.

وهذا الموضوع مهم وقد عقدنا سابقًا دورة طويلة حول كتاب (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة) وكان هذا الكتاب نموذجًا للكلام عن الصحة النفسية.

الآن في هذا اللقاء الأول سنجمل كل الكلام عن الصحة النفسية ثم في اللقاءات الأربعة سنركز على نقطة من هذه النقاط الخمس التي سنتناقش فيها اليوم.

نبدأ بسم الله، هذه مقدمة نذكر أنفسنا فيها بهذا المعنى المهم، وهو: أن النفوس التي بين جنبينا أمانة عظيم من المهم الاهتمام بها ورعايتها، ومن المهم جدًا معرفة أن إصلاحها غاية شرعية.

وقفات مع آيات سورة الشمس لنعرف من أين أتى مصطلح الصحة النفسية؟

حين نقرأ سورة الشمس نعرف أن هذه السورة لها ميزة عن بقية السور وهي: كثرة الأقسام فيها، فإن الله -عزّ وجلّ- قد أقسم أحد عشر قسمًا في هذه السورة العظيمة، وهذا دليل على أن الأمر المقسوم عليه أمر عظيم ومهم وعليك أن تعتني به، ولا توجد سورة تشارك هذه السورة الكريمة في عدد الأقسام.

ما هو هذا المعنى في سورة الشمس الذي أقسم الله عليه؟

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾

إذًا أقسم -سبحانه وتعالى- هذه الأقسام كلها على النفس ومسألة إصلاحها ومسألة إفسادها.

نقف وقفات مع هذه الآيات العظيمة لنعرف دورنا ونعرف من أين أتى مصطلح الصحة النفسية؟ هل هو مصطلح مستورد أم هو مصطلح أصيل؟

- أقسم الله -عزّ وجلّ- هذه الأقسام كلها على أنه سوّى النفس "سوّاها" يعني: أنها في أحسن حالة في الأصل، سويّة.

من تسوية النفس: إلهامها وتعليمها: ما هو الفجور وما هي التقوى، بمعنى: أن الإنسان خُلقت فيه فطرة سوية فيها مجموعة مستحسنات، ومجموعة مستقبحات.

بمعنى أنه يولد وهو يعلم الحسن من القبيح على وجه الإجمال وليس على وجه التفصيل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ يعني: ألهمها

ما هو الفجور وما هي التقوى، وما هو الحسن وما هو القبيح. ومهم أن نعرف هذا لأن الإنسان مهما ابتعد إلا أنه يوجد مؤشر شديد داخل نفسه، إذا دخل في الفجور، إذا دخل في المستقبحات؛ يجد ألم في داخل نفسه ويضطرب بسببه، مهما تعود على المنكر إلّا أنه يوجد شيء يبقى غير مريح في نفسه! لأن الله قد ألهم النفس ما هو الفجور وما هي التقوى.

مثال بسيط جدًا دائمًا يتكرر: حين نسأل أحدًا:

هل تحب الظلم، هل يمكن لإنسان سوي أن يحب الظلم؟ الجواب: لا.

هل تحب العدل؟ الجواب: نعم.

كل النفوس **على وجه الإجمال** تعرف الفجور من التقوى والحسن من القبيح، إلا أنه **على وجه التفصيل** يرتد هذا الأمر إلى التربية وتفاصيل أخرى يأتينا بعد ذلك الكلام عنها.

إذًا الأمر الأول:

أن الإنسان خُلق مميّزًا بين الحسن والقبيح، بين الفجور والتقوى، وعنده القدرة على الاختيار بين أن يسير في هذا الطريق أو هذا الطريق.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ الله سوى النفس تسوية عظيمة تحب الحسن وتكره القبيح.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ عند الإنسان القدرة على اختيار يدخل في أي البابين.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ والمعنى: أن الإنسان ما دام عنده الاختيار؛ إذًا عليه أن يزيد نفسه من الحسن ويبتعد عن القبيح وحتى لو ابتلي بأن كان هذا القبيح شيئًا من طباعه التي تطبع بها فعليه أن يكون في جهاد مع نفسه حتى

يزكيها ويعليها ويرفعها، ويصلح ما وجد في نفسه من شيء هو بنفسه يستقبحه.

ولنضرب مثالًا: نأتي إلى شيء مثل البخل، هذه صفة من الصفات التي قد يكون الإنسان مبتلى بنفسه بها ولكنه لا زال يراها قبيحة، حتى لو كان مبتلى بها! إذا كان عنده عقل صحيح وكان صادقًا مع نفسه، فسيرى أنها صفة قبيحة. الآن ما هي التزكية؟

التزكية: أن تكون عينه على صفات نفسه ويكتشف صفته -البخل- وهو مستقبحها فيبذل جهده في إصلاحها وهذه تسمى التزكية بكلمة مختصرة.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ دسّاها: يعني أنه يخبّئ التمييز الذي حصل في نفسه، هو يميز بين الفجور والتقوى ومع ذلك يضحك على نفسه فيقول: (أنا لست بخيل بل أنا إنسان اقتصادي)! فيأتي إلى ما يعرف أنه فجور أو أنه ليس مستحسن ويخبّئ هذه الحقيقة!

وهذه أمثلة بسيطة جدًا أمام المشاكل الأكبر بكثير من هذا الأمر. فإذًا يكون الإنسان حقيقة غافل عما في نفسه من أمور تلزمه، يعني مهما كذب على نفسه وعلى الناس، تبقى النفس تؤشر مؤشرات مؤلمة حتى لو استطاع أن يكذب على الناس ويقول لهم: (أنا في حالة حسنة، وأنا راضٍ عن نفسي وما عندي إشكال)! لكن كلّما تصرف بما يخالف تزكية النفس كلّما أتته الآلام والأحزان، وكلّما ضاقت عليه نفسه؛ فإن النفس قد خلقت تحب أن تتزكى وتتعلى وتسمو ولا تحب أن تبقى في الرذائل، حتى لو الهوى يحب الرذائل، لكن النفس خلقت على حب السمو، من يدسّيها يجرها من فوق وكأنه يخبئ هذه الحاجة في النفس الإنسانية.

هذه المقدمة كان لا بد منها: أن نعرف أن الله -سبحانه وتعالى- قد أخبرنا عن هذه النفس وأنه قد أوصانا بها وأمرنا أن نتعامل معها كما يليق، وما يليق هو: أن نطلب لها التزكية.

وكلمة التزكية -التي هي ضد التدسية- بها يكون الإنسان صحيح نفسيًا وبضدها يصبح الإنسان غير سوي نفسيًا.

لن نتكلم عن الأمراض أبدًا، فالأمراض شيء آخر، تشخّص بطريقة مختلفة، هذا اللقاء توعوي فقط، نعي فقط كيف نجعل أنفسنا سليمة لا تدخل في الاضطرابات، ألاحظ السمات التي في شخصيتي وأسلوبي في التفكير وأعدلها حتى لا أورط نفسي في إشكالات يمكن أن تتحول بعد ذلك فتصبح أمراضًا بعد ذلك، لكن موضوعنا ليس المرض الآن ولكن موضوعنا:

كيف تبقى صحيحًا

مثلما يوعّى أحد بكيف تكون النظافة وبفوائد النوم المبكر وأنه يحافظ على صحتك، لكني لست طبيب لأصف العلاج، هذه جلسة توعية فقط. مجموعة من المفاهيم إذا أدخلتها في ذهنك تكون طلبت لنفسك الصحة النفسية، فنحن لسنا في مكان تشخيص أمراض ولسنا في مكان علاج للأمراض، نحن في مكان توعية لهذه النفس التي بين جنبينا حتى لا تدخل أبدًا في طريق المرض وتكون بعيدًا تمامًا عن هذا الطريق.

❀ بهذا عرفنا أن الصحة النفسية مطلب شرعي؛ لأنك لن تقوم بكل الواجبات الشرعية إلا إذا كانت نفسك طيبة، لكن إذا تعبت نفسك ومرضت وأرهقت، معنى هذا أنك لن تستطيع القيام بالواجبات! فلذا يجب أن تحافظ على نفسك التي بين جنبيك كما تحافظ على بدنك الذي يحمل نفسك؛ لأن

الصلاة -مثلًا- التي هي رأس العبادات بعد التوحيد إنما هي بدن قائم وقلب حاضر، فإذا أتيت بالبدن القائم بدون القلب الحاضر فلن يقوم البدن أصلًا. وهذا ما قصدناه بأن الصحة النفسية مطلب شرعي، يجب أن تكون نفسك صحيحة، وقد ورد في الحديث: «أصبح رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يومًا طيِّبَ النَّفسِ يُرَى في وجهِه البِشرُ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ! أصبحتَ طيِّبَ النَّفسِ يُرَى في وجهِك البِشرُ، قال: أجل...»[1]

إذًا هذه الكلمة في الحديث تشير إلى أن النفس قد تكون في حالة من الطيبة فتنشط ويظهر على كل معالم الإنسان هذا النشاط، وقد تكون متعبة مرهقة فيظهر هذا التعب على ملامح الإنسان وهذا واضح حين نتكلم عن الهموم والأحزان وبعض المشكلات التي يدخلها الخلق، بعدها يظهر هذا كله على أبدانهم وعلى معاملاتهم وحتى ملامح وجوههم، والعكس بالعكس؛ إذا طابت نفوسهم، حتى أبدانهم تصلح، وإذا حصل في النفس ما حصل من تكدير كانت النتيجة تظهر حتى على البدن؛ لذلك سمي أثر الخبر السار: "بشرى" لأن بَشَرة الوجه تتأثر به، حين يدخل الخبر السار إلى نفسك بَشَرتك يحصل لها تأثر؛ لذلك سميت "بُشرى" من البَشَرة.

فهمنا الآن لماذا تعتبر الصحة النفسية مطلب شرعي، ونحن في هذا الكلام لا ننكر أن أهل الكفر قد سبقونا في الكلام والمدارس والأبحاث التفصيلية في الأمراض النفسية، لكن ليس هذا هو موضوعنا أصلًا، نحن نريد أن نفهم في هذه الساعة أن الشريعة راعت نفسك وطلبت منك أن تراعيها وهذا ليس أمرًا جديدًا عندنا إنما أمر قد ذكره العلماء قبل ذلك بطرق مختلفة، ونسمع ما

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٣٩٩).

للقلب من أهمية، وكيف أن الله ينظر إلى القلب...فحول هذا الأمر نحن ندور، لا بد أن تكون نفسك صحيحة لتصل إلى صحة بدنية تلحق الصحة النفسية.

إذًا الصحة النفسية تؤثر على الصحة النفسية، فنفسك وبدنك أمانة عندك ومن المفترض أن تكون في حالة محافظة عليهما قدر المستطاع.

كيف نصل إلى هذا الأمر؟

في هذا اللقاء سنضع خمس قواعد أساسية بها تحصل الصحة النفسية لك ولمن تربي، هي خمس قواعد أساسية سهلة في الطرح لكن تحتاج إلى العمر كله لتحقيقها فلذا خذ الأمر بجدية من أجل أن تحفظ نفسك ومَن وراءك، خصوصًا وأنه تبين لنا أن هذا أمر كُلِّفنا به، فإن الصحة النفسية تكاد تكون هي الأساس الذي يُبنى عليه التكليف، فأنت لن تقوم بالتكاليف إذا لم تكن عندك صحة نفسية كما ينبغي، أنت إذا مرض بدنك دخلت في الأعذار الشرعية، وإذا مرضت نفسك، ماذا سيكون الأمر؟! أمر صعب أن نقدّره لكن نسأل الله أن يرزقنا صحة نفسية ويطيّب نفوسنا ويجعلنا منشرحي الصدر دائمًا، متوكلين على رب العالمين دافعين الهموم والأحزان اللهم آمين.

- نبدأ بقاعدة القواعد جميعًا، أهم قاعدة نبدأ بها في الصحة النفسية.

القاعدة الأولى

لا يصبح الإنسان صحيحًا نفسيًا إلا إذا كان عنده إجابة على الأسئلة الوجودية.

أول سبب من أسباب الصحة النفسية: أن يكون عند الإنسان إجابة على الأسئلة الوجودية (الإيمان)، يجب أن تجيب على نفسك: من أين أتيت؟ وماذا

يجب عليّ أن أفعل؟ وإلى أين المصير، مَن أنا؟ مَن خالقي؟ على مَن أتوكّل وأعتمد؟ ماذا ورائي؟ ماذا أمامي؟ ماذا سأستقبل؟

لا بد أن يكون هناك إيمان ليكون الإنسان صحيحًا نفسيًا، وهنا "الإيمان" يُقصد به: الإيمان بالغيب. أركان الإيمان الستة ابتداء بركن الإيمان بالله وانتهاء بركن الإيمان باليوم الآخر، مرورًا بركن الإيمان بالملائكة والكتب والرسل والقضاء والقدر، وهذا وحده سنفرد له نقاش خاص كنقطة خاصة من بين الخمسة نقاط.

إذًا أول سبب للصحة النفسية: أن لا تكون تائهًا، ضالًا، لا تعرف مَن ربك، مَن الذي خلقك، لا تعرف الله ولا أسمائه ولا صفاته.

لن تكون صحيحًا نفسيًا إلا إذا علمت أنك أنت الضعيف الفقير العاجز وعرفت الغني كامل القدرة -سبحانه وتعالى-، لا بد أن تعرف القوي المتين -سبحانه وتعالى-، بدون هذا ستكون تائهًا، لا تعرف سبب وجودك ولا تعرف ما هو دورك في الحياة! ويتخطفك الناس عن دورك في الحياة تخطّفات كثيرة، وكل يوم يخرج لك شأن في مسألة دورك في الحياة! لا يكون الإنسان صحيحًا نفسيًا إلا إذا آمن لأن الإيمان يجيب على ما نسمّيه: "الأسئلة الوجودية"

- لماذا أنت موجود؟
- من أين أتيت؟
- إلى أين المصير؟
- ماذا يجب عليّ أن أفعل؟

كل هذه الأسئلة لا بد أن يكون لها إجابات تامة الوضوح، ليس فقط إجابات تقليدية، هنا يجب أن نأخذ الأمر على محمل الجد، لا نريد إيمان

العادة والمربى والإلف، فتحت عيني ووجدت الناس أجابوا على هذه الأسئلة وأنا أجيب معهم! نعم، الحمد لله أننا وجدنا من يجيب على الأسئلة لكن يجب أن تكون هذه الإجابات واضحة تمامًا عندي، ويكون قلبي ممتلئًا بها لذا قالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ كل المعاني القرآنية التي سمعوها في تلك الجلسة الإيمانية الواحدة دخلت إلى قلوبهم مباشرة.

﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ (الفاء) تقول: إن إيمانهم ترتب على فهمهم للنصوص، نحن الحمد لله -من فضل الله- فتحنا أعيننا في مجتمعات إسلامية، وهذه وحدها بدون أي شيء نعمة يُشكر الله عليها. أنت والديك مسلمين وإخوتك وجيرانك وأهلك مسلمين، الحمد لله رب العالمين، نعمة عظيمة، لكن بقي أني كلّما نضجت وكبرت وبدأت أعرف نفسي يجب أن أعرف الحقائق كما ينبغي، تبدأ المسألة بالتلقين وتنتهي بالتفهيم، فحين تريد أن تعرّف نفسك لأحد يجب أن تصف رب العالمين، الإنسان المؤمن الذي عنده الإجابة على الأسئلة الوجودية يجب حين يصف نفسه أن يقول:

- أنا بالله موجود، وبحبل الله ممتد وباق وسائر، ومتوكل على الله، أنا في حفظ الله ورعايته، ربنا يغنينا ويعطينا.

أنت موجود بحبل من الله -عزّ وجلّ-، لست مقطوعًا من الحبل، لك ركن شديد، لست تائهًا في الحياة، تعرف سبب وجودك وتعرف وظائفك الأساسية، وهذا كله سيتبين بعد ذلك أنك حين تعرف وظيفتك الأساسية لا يستطيع أحد أن يقول لك: (أنت فاشل، ولا تساوي شيئًا، أنت عضو مشلول في المجتمع)! لا يستطيع أحد أن يقول لك هذا فتحصل لك حالة نفسية، ألست العابد المصلي الذاكر؟ ألست الذي تكتب لك ملائكة اليمين الحسنات؟

ألست المستور؟ ألست كذا وكذا؟ أين الفشل؟! حين يفكر الناس في الدنيا فقط وتكون المقاييس دنيوية، حين يقول لهم الناس: (أنتم فاشلون وأين هي إنجازاتكم) فينهاروا ويبكوا!

لكن نحن نعرف أن النجاح هو هذا القيام الذي في الليل ومناجاة رب العالمين في القيام والوتر الذي تأتي به ريح الثلث الأخير من الليل وأنت تعرف أن ربنا ينزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا فتسمو روحك وتجد نفسك، هذا كله نجاح وتصلي الفجر في وقته هذا نجاح عظيم.

لا تظن أننا نقول هذا الكلام كله لتتركوا الدنيا وتزهدوا فيها سيتبين في النقاط التالية كيف حال الدنيا وما طبيعتها، تفهم طبيعتها فلا تشعر أنك منهار ومتعب على أقل شيء يحصل لك أو على أقل نقص!

- النقطة الأولى التي اتفقنا عليها:

لكي تكون صحيحًا نفسيًا: لا تقطع الحبل الذي بينك وبين الله.

لكي تكون صحيحًا نفسيًا: لا تترك الركن الشديد.

لكي تكون صحيحًا نفسيًا: يجب أن تكون مؤمنًا؛ لذا قال تعالى:

﴿الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[1]

أول وأهم صفة: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ والإيمان بالغيب ليس تسميعًا للناس أو كتابة في المدرسة لأركان الإيمان، بل يجب أن تكون المعاني حيّة. فأنت لتكون صحيحًا نفسيًا؛ اقطع الأيام والليالي بزاد المعرفة عن الله، اجعل كل

(١) البقرة: ١-٣.

يوم، كل أسبوع، كل شهر سببًا لزيادة معرفتك بالله، وهذا إذا بدأته صحيحًا ستكون النتائج باهرة في لحظة المواقف التي سنتكلم عنها.

قد تقرأ وتسمع عن ربنا لكن لا تشعر أنك ممتلئ بالإيمان لكن حين تأتي المواقف يظهر ما في داخلك من إيمان، وهناك طرق تفصيلية سنعرفها حين نقرأ الكتاب هناك بعض الاعتقادات التي يجب أن نعتقدها تفصيليًا لنصل إلى الصحة النفسية، اليوم نمر بكلام إجمالي على الخمس نقاط، النقطة الأولى المهمة هي: الإيمان، لا يوجد صلاح لحياة ولا لنفس ولا لمجتمع وهو مادي لا يفكر إلا في الدنيا، لا صلاح لفرد ولا مجتمع ولا بلدان بلا إيمان، إذا لم يكن هناك إيمان فهذا طريق الخراب للنفس الإنسانية، وإن تحسّنت بعض الأمور المادية لكن معدل الانتحار يزيد والسكر والمخدرات تزيد؛ لأن النفس تعيش حالة من العطش الشديد ولا واحة يشرب منها هذا، وهؤلاء قد ضرب لهم الله مثلًا في كتابه ومثلًا لأعمالهم، قال تعالى: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾[1] وهذه هي الحقيقة، سراب في سراب يجرون وراءه ويظنون أنهم سيلحقون كذا وكذا، هذا الكلام سيتبين في القاعدة الثانية. أول قاعدة من قواعد الصحة النفسية كانت: وجود الإيمان.

القاعدة الثّانية:

تصحيح التفكير بالإيمان

أنت أصبحت مؤمنًا، عندك إيمان لكن لا تجعل الإيمان مادة جامدة، وإيمانك بالكتاب وبالرسول وبلقاء رب العالمين لا تجعلها مجرد معلومات وانتهى الأمر! بل لا بد أن تصحح تفكيرك بهذا الإيمان. وهنا الأمثلة تأتي بالنتيجة إن شاء الله:

---

(١) النور: ٣٩.

مثلًا تقرأ في كتاب الله -عزّ وجلّ- ما يصف علاقتك بالناس -وهذا من أكثر الأمثال التي تساعدنا على تصور الموضوع- تقرأ آية في سورة الفرقان لو وضعتها قاعدة أمام عينيك في مسألة معاملة الخلق لأرحت نفسك، وهي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[1]

معنى ذلك أن الناس حولك قريب أو بعيد، جيران أو شديدي القرب منك، كلهم لهم اسم واحد: (فتنة واختبار) عندما نقرأ هذا في القرآن، ويقول الله لنا: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ إذًا الواجب أن تصبر وتعرف أنه عند الأذية الأمر ابتلاء وفتنة وأيضًا عند العطية هو ابتلاء وفتنة، هل تتعلق بالناس حين تُمد لك أيديهم؟! بل اصبر فربنا الذي أعطاك. وهل حين تُقطع اليد ولا أحد يعطيك تحزن على نفسك وتغضب من الناس؟! بل يجب عليك ألّا تتعلّق بالناس وقت العطية ولا وقت قطعها تشعر بالغضب، كل الناس عندك سواء أكرموك أو آذوك لهم اسم واحد: (فتنة، اختبار) تتعلق بمَن؟ ولذا إذا عرفت في النقطة السابقة أن الله رزاق قريب ومجيب؛ تأتي هذه النقطة يسيرة وسهلة وواضحة:

- أن الذي عرفته عن رب العالمين أنزله على الواقع، وافهم وصحح تفكيرك، مَن مدّ يده ليس هو مَن مدّ يده بنفسه، إنما الله سخره وشرح صدره ورزقه ليجري منه الرزق لك.
- والذي مُنع إنما اختبرت بمنعه فسلّطه الله -عزّ وجلّ- عليك.

ولهذا أسباب ولهذا أسباب لكن في النهاية هناك قاعدة واضحة تحكم علاقتك بالخلق.

---

(١) الفرقان: ٢٠.

حين نأتي إلى الدنيا والتفكير فيها، انظري كيف ضرب الله لها مثلًا في القرآن، وانظري كيف أن الله -عزّ وجلّ- في مواطن كثيرة وصف الدنيا أنها متاع الغرور وفي ثلاثة مواطن شبّه لك الدنيا مثل الزرع، انظري للزرع ماذا يحصل له؟ يأتي الربيع فيزهر الزرع ويكون له شأن، ثم يأتي الخريف ويذهب هذا كله! هكذا الدنيا لها ربيعها وخريفها وصيفها وشتاؤها، فيجب أن يكون هذا الأمر عندك على بال، أن الدنيا لا تبقى على حال، ولو كانت تبقى على حال من السعادة لما اشتهى الناس الجنة ولا طلبوها، ولا هي كانت دار القرار! لكن الحقيقة أن هذا وصف الدنيا: افهم أنها متاع الغرور.

مثال آخر، على النقطة الثانية: صحح تفكيرك:

أنت عندما تعرف أن الدنيا متاع الغرور وأنها متقلبة، حين يصيبك شيء في الدنيا لا تصدم، ولا تقل: (عمرنا ما فرحنا ولا شيء إلا ونجده منغصًا) لن تقول ذلك لأنك عرفت أن الدنيا بُلغة منغصّة وأنها يجب أن تُنغص، الناس الآن حين يقيمون أفراحهم ويكونون في غاية السعادة، ألا يتعبون؟ يتعبون غاية التعب، الأم حين تضع طفلها الذي كانت تنتظره هل ينزل بردًا وسلامًا عليها؟ بل ربنا حكيم، جعل هذا الطفل المفروح به يأتي من وراء الآلام لتفهم أن هذه الدنيا هذا وضعها. خذ هذا وعش كل الحياة. وهذا لا يعني أن تتشاءم بل على العكس، هذا المعنى يقول لك: إذا كنت الآن تمر بحزن فلا تيأس من روح الله، الدنيا طبعها كذا، الله خلقها بهذه الطريقة، يكون فيها شيء يؤلمك وفي داخلها تأتي الأفراح قليلًا، قليلًا، ثم حين تأتي الأفراح لا تطمئن للدنيا، يأتي من وراء الأفراح أتراح، وكله وراؤه العوض، كل العوض عند رب العالمين، فأنت لن تمر بآلام هنا وينتهي الأمر! بل لو شاكتك الشوكة؛ ستجدها عند رب العالمين كفارات لسيئات ورفعة لدرجات؛ ولذا علينا أن نعقل ما هو الإيمان

بعقلنا ونجعله كأنه العين التي نرى بها، كأنك تضع الإيمان على عينيك وترى العالم به، على القاعدة الأولى سنرى الناس كلهم اختبارات وندعو أن ننجح مع كل الناس، حين يأتيك شخص غاضب تقول: (يا رب نجحني) وحين يأتيك شخص منشرح الصدر تقول: (يا رب لا تجعلني أقول له كلمة تكدّر صفوه)، (يا رب نجحني مع أي أحد، مع الجارة والقريبة والزميلة والزوج والأبناء) لأنهم اختبار والدينا كلها اختبار.

❁ من المفاهيم المهمة التي علينا أن نصحح التفكير فيها -نحن نضرب أمثلة فقط، وإلّا فالمفاهيم كثيرة جدًا- ما هو الفوز؟ مَن هو الفائز؟

نتأمل في سورة البروج التي تصف قصة أصحاب الأخدود المشهورة، هؤلاء الظلمة الكافرين، وهؤلاء المؤمنين الأتقياء، ومع ذلك تمكن الظلمة المفترين من المؤمنين، ألقوهم في النار!

الآن الصورة أن المنتصر هؤلاء الظلمة، هذه هي الصورة الظاهرية! عندما يُخبر الله عن هؤلاء، يصف ما حصل بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾[1] الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم من فازوا الفوز الكبير؛ لأننا عندما نحلل هذا الموقف نرى أن الكافرين أرادوا أن يردوا المؤمنين عن دينهم، والمؤمنون ثبتوا فكان هذا أكثر قهرًا للأعداء وأرفع منزلة عند رب العالمين. فإذا كانوا ثبتوا في هذا الموقف والصورة أنهم ألقوا في النار، لكن الحقيقية أنهم من نار الدنيا إلى جنات النعيم؛ لذا عندما يأتي الدجال يأتي معه جنة ونار، يدعو الناس، من أطاعه يدخله جنته ومن يعصيه يدخله النار، ففي الحديث أن نار الدجال جنة وأن جنة الدجال نار، فالذي دخل نار الدجال دخل الجنة، ومن دخل جنة الدجال دخل النار، فهذه الحقائق، في الصورة العامة كأن هذا هو

(١) البروج: ١١.

الخاسر وكأن حياته ذهبت لكن في الحقيقة ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾، فلذلك يقول الله -عزّ وجلّ- ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

الشاهد: أنك من القرآن تعرف ما هو الفوز وما هي الخسارة ومن الخاسر على الحقيقة؟ إذا كنت مؤمنًا -هذه هي النقطة الأولى- وتعلمت مفاهيم الإيمان ستفكر بمفاهيم الإيمان. وهذه مسألة تنقص الناس كثيرًا، بمعنى أن الناس من الممكن أن يكون عندهم إيمان ومسبحون ومكبرون ومهللون وصائمون ومصلون، لكن نفس تفكيرهم في الأمور ليس من منطلق الإيمان؛ فلذا نجده نموذجًا جيدًا في الطاعات، سائرًا على الصراط المستقيم لكن عندما يتخذ قرارات أو حتى حين يتاجر ويشتري ويبيع لا تجد أنه يفكر بتفكير الإيمان! ولنتصور هذا المعنى فقد ورد في الأحاديث أن الرجل يتصدق بيمينه بصدقة لا تعلمها شماله، قال أهل الحديث: "إن هذا مثاله مَن يشتري بضاعة بقصد الصدقة" يذهب إلى السوق فيجد أناس متعسّر حالهم، يجد بائع خضار ويعرف أنه لو بات هذا الخضار عنده سيفسد، فيشتريه بنية الصدقة. فهذا نوع من الإنفاق تنفقه يمينه ولا تعلمه شماله. فلو لم يكن الإيمان متوفرًا توفرًا جيدًا سيقول: (ولماذا أفعل هذا؟ لماذا أشتري الخاسر أو الناقص؟) ويرى أن مثل هذا كأنه تنقيص في حقه! وإن لم يفاصل البائع لا يكون صاحب ذكاء. الآن نحن لا نتكلم عن أنواع التجارة، لكن أقصد أن مثل هذا حين يذهب إلى محل من عند الباب مكتوب عليه: (الأسعار محدودة) تجده لا يتكلم، لكن يتقاوى على الضعفاء! وهذا هو الفرق بين مَن عنده

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

إيمان وغيره، صاحب الإيمان يكون قلبه أكثر رقة وإحساسًا بالخلق لا أكثر إحساسًا بشهواته.

إذًا ذكرنا:

القاعدة الأولى: أن يكون الإنسان ممتلئًا بالإيمان.

القاعدة الثانية: أن يصحح تفكيره من الإيمان.

القاعدة الثّالثة:

العبادات المليئة بآثار الإيمان نتيجتها: (السكينة)

إذا كانت هناك عبادة صاحبها ممتلئًا بالإيمان تكون النتيجة: السكينة. أحد أسباب الصحة النفسية ومن أهم آثار الإيمان وتصحيح التفكير بالإيمان: أن تعبد الله عبادة يظهر فيها إيمانك. وهنا نأتي إلى مسائل تفصيلية منها: الإخلاص والخشوع واستحضار القلب أثناء العبادات.

فأنت لتجد صحة نفسية يجب أن تكون لك صلة برب العالمين، يجب أن تتقرب إلى الله، أنت لما آمنت عرفت أن ربك هو الركن الشديد، إذا عرفت أن ربك هو الركن الشديد وهو الفعال لما يريد، وهو على كل شيء قدير، وهو قريب، مجيب، وسميع وبصير ورزاق وغني وحفيظ...عرفت هذا كله، إلى آخر المعاني، كان الواجب أن تقوم بعبادات تصلك برب العالمين، وعلى هرم العبادات التي نتكلم عنها ستأتي الصلاة على هرم العبادات لكن سنسبقها بالعبادات القلبية، وسنسبقها بأصل العبادات القلبية، أو بجامع العبادات القلبية وهو: التوكل.

أنت لتصبح عندك صحة نفسية يجب أن تعبد ربنا وتكون لك صلة به، ويجب أن تكثر منك مناجاة الله ويكثر منك نداء الله ويكثر منك الفزع إلى الله،

والاعتماد عليه؛ لذلك السبعون ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ما صفتهم؟ بالنفي: «لا يَكْتَوُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ» وسبب هذا كله الصفة المثبتة هي سبب كل هذا: «وعلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[1].

وهذه الكلمة سهلة على اللسان أما في الحقيقة فهي قلب التوحيد، مَن يحققها يجب أن يكون امتلأ إيمانًا، يجب أن يكون عنده ثقة برب العالمين تفوق الثقة بالمرئي والمسموع، تفوق الثقة بما يراه بعينيه ويسمعه بأذنيه، تفوق الثقة بكل شيء محسوس.

يعني إذا أنت الآن تجد في نفسك آلامًا، أو في بدنك تجد آلامًا، أول نقطة لتذهب هذه الآلام النفسية والبدنية:

- الثقة أن الله قادر على شفائي.
- الثقة أني لو فزعت إليه يذهب هذا كله.
- الثقة أن الله -عزّ وجلّ- لو مسح على قلبي ذهبت الآلام كلها.

قبل أن تقرأ على نفسك وقبل أن تدعو وقبل أي شيء، يجب أولًا أن تكون هناك قوة ثقة في رب العالمين أنه فعال لما يريد وأنه -سبحانه وتعالى- على كل شيء قدير، وأنه بعباده رحيم وأنه قريب ومجيب ولا يريد عذاب عباده...كل هذه الاعتقادات يجب أن تكون مستقرة ومتتالية في النفس الإنسانية التي آمنت بالله، الثقة التامة أنه لن يخذلني ولن يردني، لا يمكن أن أرفع يدي إليه ويردني صفرًا، إن من صفاته -سبحانه وتعالى- : أنه يستحي أن يرد عبده صفرًا، لن يردك صفرًا. لكن متى يأتي الفرج؟ ما شكل الفرج؟ متى يأذن الله؟! هذا كله في حكمة الله، فكما تؤمن، تؤمن أنه -سبحانه وتعالى- يفرج الكرب

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤١).

العظيمة وهو -سبحانه وتعالى- بيده مفاتيح الفرج، كما تؤمن بذلك تؤمن بحكمته، وأن هناك اختبارات وأن كل هذه الآلام التي تشعر بها ستجدها غدًا وتُحمد عليها وسيكون لك بسببها مكانة.

معنى ذلك أنه لا بد من العبادات، ورأس العبادات، وقلب التوحيد هو: التوكل على رب العالمين، الثقة برب العالمين.

هذه الثقة تجعلك عندما تكبّر في الصلاة وأنت تناجي الله، من قلبك تقول: (الحمد لله رب العالمين) ومن قلبك تشعر أنه الرحمن الرحيم، ومن قلبك تشعر بالتفاؤل والسعادة بيوم الدين الذي ستلحق به برب العالمين، من قلبك تشعر أنه لا أحد يستحق أن يُعبد إلا إياك ولا أحد يعطيني العون إلا إياك، وأنا لا أريد إلا الصراط المستقيم الذي يوصلني إلى رضاك، فيبقى الإنسان مناجيًا لربه، سائلًا ربه، راجيًا ربه، مشغولًا بربه، والله يفتح له أبواب الخيرات تنزل على قلبه قبل أن يجدها ماديًا، يشعر براحة أنه سأل ملك الملوك وإذا أذن ملك الملوك؛ دبر الأمور وأتى بالأسباب ويسرها وأرشدني إلى الصواب...كل هذا مُتتالٍ مُتتالٍ. لكن يجب أن يكون هناك إيمان يغير تفكيرنا ثم تأتي العبادات تكون بها الصلة، فطوال الوقت أنت لست منقطعًا عن ربك، لا تفكر وحدك، ولا تفكر مع الشيطان؛ لذا مع هذه النقطة نضع نقطة مهمة في مسألة العبادات:

- إذا كنا نريد عبادات مليئة بالإيمان لا بد مع هذه النقطة نضع: "والحذر من الشيطان، والحذر من العدو"

لأن الشيطان يتسلط عليك في كل المفاهيم، يعني إذا أتيت بمفهوم الثقة بالله وقلت: (أنا متأكد أن ربنا لن يخذني) يقول الشيطان لك: (لكن فلانًا حصل له وحصل له وأنت من قبل هذا حصل لك)! ويخيفك ويوسوس لك

بحيث أن يدخلك القلق! وهذا أشد أمراض العصر، مهما كان الإنسان بصحة نفسية اليوم، أحسن شخص صحيح نفسيًا إلّا وتجد علامة القلق موجودة فيه -إلا من رحم ربي والمرحومون كثير-! لكن كل الناس قلقون، من ليس قلق على ما هو موجود فيه يقلق على غد، يقلق على أبنائه ويتكلم عن المستقبل بعد كم من السنين أين يجدون وظائف، أين يجدون أموالًا، مَن أجد ليتزوج ابنتي! طوال الوقت ضغط على الناس ومنافسة وكل شخص يريد أن يعلو على الثاني! قلق يفسد على الإنسان حياته وهذا ما يأتي به إلا الشيطان.

والله -عزّ وجلّ- في كتابة قد أخبر أن: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1]

وأمور كثيرة سيأتينا الكلام عنها في مستقبل الأمر لأن الوقت ضاق علينا.

إذًا القاعدة الثالثة: عليك بعبادة مليئة بالإيمان تأتي لك بالسكينة وعليك بمعرفة بالعدو. يجب أن تعرف العدو وتعرف أن العدو لا يترك لك جانبًا من الجوانب؛ فعليك إذا كنت ممتلئًا بالإيمان أن تهجم عليه بالمفاهيم الصحيحة. مثلًا دخلت بيتك وتنام مرتاحًا، وأنت نائم يقول لك: (أنت لم تغلق الباب) فتقوم من الفراش لتتأكد من غلق الباب، فإذا وجدك استجبت مرة؛ يأتيك بعدها وبعدها حتى يصبح وردك اليومي! ثلاث أو أربع مرات تقوم لتتأكد من غلق الباب...!

المفترض أن تقول لنفسك بعد المرة الأولى: (افترض أن الباب مفتوح مَن الحافظ؟ أليس الله هو الحافظ؟ هل هذه القفلة هي التي ستحفظنا؟ الله الذي يحفظنا) وحينئذ ازْدد توسلًا لرب العالمين، أن احفظني وأذهب عني وساوس الشيطان، هو يكره منك التوكل وأنت الآن أكثر ما يخيفك هو هذا الباب، فيجربك وإذا نجح معك يستمر في وسواس الباب، وإذا لم ينجح معك

(١) الطلاق: ٣.

يجربك في الوضوء أو الصلاة أو الأبناء، يجربك في أي شيء! وتبقى المرأة طوال الوقت قلقة على الزوج حتى لا يتزوج، وتنكد عليه وتقول: (بالأمس رأيت في المنام أنك تزوجت)! وتحاسبه على هذا الحلم!! والشيطان لا يتركها، حتى تجعل زوجها يفكر في الزواج وإن لم يكن كذلك من قبل!!

وهذا كله بسبب نقطة ضعفك، يأتيك الشيطان عند نقطة ضعفك فيعيد ويزيد، والحل: إذا دخل الإيمان؛ دفع الشيطان. أنا أعرف أن الكلام سهل لكن هذا حين يكون في الواقع يكون أصعب ما يكون لكن لو دخل الإيمان دفع الشيطان.

نحن نتكلم عن الصحة، لتكون صحيحًا اعرف أن قلبك ضعيف جدًا إذا لم يكن فيه إيمان، وستهجم عليه الأفكار، فالحل: املأ قلبك إيمانًا فيتسع ويتسع ويصبح قويًا ويتحمل ما يمر عليه من أزمات.

القاعدة الرابعة:

التعامل الصحيح مع الأزمات

تحت هذه النقطة ثلاث نقاط، ولا ننسى أن الإيمان يصاحبنا في كل هذا الكلام، فهو أساس الصحة النفسية

- فإذا كان معك إيمان.
- وصححت تفكيرك بالإيمان، لم يبق جامدًا تسمعه وتقول: (الإيمان يزيد وينقص) وأنت لا تسير في طريق الزيادة ولا تخاف من النقصان.
- وأتيت بعبادات مليئة بآثار الإيمان تأتي بالسكينة وتدفع عنك وساوس الشيطان.

- فعليك أن تعرف كيف تتعامل مع الأزمات معاملة المؤمن وتحت هذه القاعدة ثلاث نقاط في الأزمات:

١- الصبر عند الصدمة الأولى.

لا تكن ضعيفًا وابذل جهدك أن تكون عندك الشجاعة الإيمانية، وهذه تستمدها من رب العالمين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١] تستمدها من مفاهيم الإيمان وعدم الخور وعدم مصاحبة الجبناء الذين كلما حصل لهم شيء صرخوا وفعلوا! عندما تجد الناس جبناء يحيطون بك، يجب أن تعرف أن هذا خطأ وأنها صفة يجب أن تبتعد عنها، لا تكن جبانًا، يجب أن تكون شجاعًا شجاعة إيمانية -هنا الكلام عن الشجاعة الإيمانية- هذا قَدر ونزل على الإنسان، وقد قال رسول الله: «إِنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى.»[٢]

فابذل جهدك أن تتمالك نفسك، ولا تنفرط نفسك عليك، وبالدعاء وبالاستغاثة وأعني ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون على صغير الأمر وكبيره.

فإذا صح منك الصبر عند الصدمة الأولى أتت المسألة الثانية، الآن بعد أن تمر الصدمة الأولى الشيطان لن يتركك، يجعلك هذا الموقف بيئة جيدة لوسوسة الشيطان، يقول الشيطان: (لو لم تفعل ولو لم تترك ولو ما أخذت...) على حسب الحادث، فتأتي النقطة الثانية:

٢- علينا استمداد مفاهيم الإيمان، التي نحتاجها عند البلاء.

مثل الرضا عن الله والصبر والعلم أن الله حكيم وبذل الجهد بعدم السماح بوسوسة الشيطان.

---

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٣).

٣- لكي يكون موقفك في الأزمات كما ينبغي، عليك بالاحتساب.

والحقيقة أن الاحتساب هو نور يضيء للإنسان الحياة ويحافظ على صحته النفسية، بمعنى أن تقول: (لا شيء يضيع، حتى الشوكة نشاكّها) ودائمًا تتخيل الحياة بهذه الطريقة قطعة

الجزء الأول منها: هو ما نعيشه.

الجزء الثاني: أن هذا نفسه ما عشناه سيعرض لكن بصورة حسنات وسيئات.

مثلًا: هذا المجلس المبارك -نسأل الله أن يجعله مباركًا ويجعل الملائكة تحيط بأهله ويقال لنا: (قوموا مغفورًا لكم)- هذا الجزء الأول من الموقف أننا مجتمعون.

هناك جزء ثانٍ من الموقف: أن يقال لنا: (قد غفر لكم في يوم كذا وكذا لما اجتمعتم حول كذا) فكونك تحتسب هذه المواقف كأنك تتصور الجزء الثاني حين يعرض عليك، كيف رب العالمين يكرمك بالرضا والحسنات وارتفاع الدرجات، فكأنك تقول لرب العالمين: (احسبها لي لما أصل عندك) وهكذا لو تصورت أن: «الرَّجلُ في ظلِّ صدقتِه حتَّى يُقضَى بين النَّاسِ»[١]

ستخرج وتقول: (يا رب الشمس ستقرب من الخلق قربًا عظيمًا بحيث أن الناس يحصل لهم ما يحصل بسبب قرب الشمس؛ اجعل لي هذه الصدقة ظلًا لما ألقاك) تصوّر أن هذا من أثر الإيمان، أنك تعرف أين ستذهب وكيف ستدخل إلى قبرك.

الآن لو قلت: (إنا لله وإنا إليه راجعون) وقت المصاب، فستحتسب قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[٢] الله في السماء يثني عليك

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٧١).

(٢) البقرة: ١٥٧.

ثناء بالغًا وتسمعه الملائكة وتثني عليك الملائكة حملة العرش، وتثني عليك الملائكة أهل السماوات السبع، هذه الصلاة ستجدها بعد ذلك ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ ستحيط بك الرحمة، فالاحتساب وقت الأزمات ضروري.

إذًا ثلاثة أمور عليك بها وقت الأزمات:

١. الصبر عند الصدمة الأولى.

٢. استلهام مفاهيم الإيمان المتصلة بالمصائب مثل الرضا وحكمة الله، عليك أن تقرأ لتهدأ نفسك.

٣. الاحتساب، فلا تكتفِ بأنك صبرت عند الصدمة الأولى، فالشيطان لن يتركك، وكلما هجم عليك الأمر اعرف أن الاحتساب نور المؤمن يهدئ نفسه ويسبب له الراحة النفسية لأنه يعلم أن لا شيء يضيع، تسلط عليك ظالم وأخذ منك شيء وأنت ضعيف ما عندك من القوة لتردّه. اعلم أن كل ألم أو ظلم سيبقى لك وتحصلّه ولا يضيع عند رب العالمين، لا تخف، الدنيا ليست نهاية المطاف بل هي مقطع من الحقيقة ثم يأتي المقطع الثاني الذي يحول كل شيء إلى حسنات وسيئات.

ولذلك اليوم نحن لا نرى نور المؤمن، لكن نرى نور الشمس. يوم القيامة في موقف من المواقف ستُلف الشمس وتُلقى وتبقى الدنيا في ظلام، ونور المؤمن الذي كان لا يرى في الدنيا يصبح نورًا حقيقيًا! وهكذا الحسنات والسيئات، أنت تعمل الآن ولا ترى شيئًا يكتب عليه (إن هذه حسنات وإن هذه سيئات) لكن يوم القيامة نفس هذه المواقف تصبح حسنات وسيئات، تصبح نورًا يمشي الإنسان فيه، ولذلك في آية الحديد[١] كان يقول ابن مسعود -رضي الله

(١) المقصود قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾.

عنه- "على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورًا من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة" على حسب الأعمال!

القاعدة الخامسة:

شكر النعم

النقطة الأخيرة أمام قدرتك على المرور على الأزمات وتصرفك السليم مع الأزمات يأتي شكرك للنعم؛ لتكون صاحب صحة نفسية يجب أن تكون شاعرًا بالنعم وممتلئًا بالشعور بها.

يجب أن تكون دقيقًا في رؤيتك النعم لا تتكلم عنها بالإجمال، يجب أن تبدأ برؤية سلامة البدن والنفس وتنتهي بما تراه من نعم تترا، وأهم من هذا كله **سلامة دينك**؛ أنك صاحب دين وأنك تعرف رب العالمين وأنك في حماية الله وأنك إذا توكلت على الله كفاك وإذا سألته أعطاك.

قربك من رب العالمين ومعرفتك به من أعظم النعم، وعدّ وستتعب من العدّ ولن تنتهي النعم، لا تكن كافرًا بنعماء الله ولا توصل نفسك للكفر بنعماء الله فإن من أهم أسباب عدم الصحة النفسية أن ينظر الإنسان إلى من هو أعلى منه في الدنيا، وقد أخبر النبي -صلّى الله عليه وسلّم- عن ذلك ونهانا، فإن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- نهانا نهيًا صحيحًا عن أن ننظر لمن هو أعلى منّا في الدنيا، وأمرنا أن ننظر لمن هو أدنى منّا في الدنيا، وقال النبي -صلّى الله عليه وسلّم- : «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هو أَسفَل مِنْكُمْ وَلا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوقَكُم؛ فهُوَ أَجْدَرُ أَن لا تَزْدَرُوا نعمةَ اللَّه عَلَيْكُمْ»[1].

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٣).

وربنا قال في القرآن: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1] هو لنفتنهم فيه وما عند الله خير وأبقى، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾[2].

فيجب أن تتذكر نعم الله ولا تقلب وترى هؤلاء في قصورهم وهؤلاء في دورهم وهؤلاء سافروا ولبسوا واشتروا سيارة!! أنت بذلك ترتكب منهيّ عنه مؤكد بالنص القرآني وبالحديث النبوي. أنت ممنوع أن ترى مَن هو أعلى منك لكيلا تفسد عليك نفسك، لا توجد أي مصلحة تلحقك إلا ازدراء نعمة الله، نسأل الله أن لا يجعلنا من الكافرين، نسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين الذاكرين، المطمئنين لرب العالمين الراضين بما قسم لهم في دنياهم، الراغبين في جنات النعيم.

ومَن شكر، شكر الله له، اشكر والله -عزّ وجلّ- يشكرك ومن شكر الله -عزّ وجلّ- أن يشرح لك صدرك ويقنّعك بما رزقك، نسأل الله أن يرضّينا ويطمّعنا في جناته نحن وأولادنا وشباب المسلمين جميعًا بجنات النعيم، اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) طه: ١٣١.

(٢) القصص: ٧٩-٨٠.

اللقاء الثّاني

(١) شرح رسالة غاية النفع

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا أن يسّر لنا هذه الاجتماعات، نسأل الله أن يزيدها ويبارك فيها وينفع بها ويجعلها في موازيننا حين نلقاه...اللهم آمين.

كنا بالأمس تناقشنا في موضوع الصحة النفسية وعلمنا أنها مطلب شرعي وتناقشنا فيها بالإجمال في خمس نقاط، اليوم -إن شاء الله- نوفّق أن نناقش بالتفصيل أحد النقاط الأساسية التي تناقشنا فيها بالأمس، وسنجد أن الكلام الذي سنناقشه اليوم وغدًا إلى أن ننتهي من قراءة الرسالة سيدخل في جميع الخمس نقاط السابقة، لكن نتذكر الخمس نقاط التي ذكرناها إجمالًا للوصول إلى الصحة النفسية:

كيف أصل إلى الصحة النفسية إجمالًا؟

١- لن يصل الإنسان إلى الصحة النفسية إلا ومعه إيمان.

لا بد من الإيمان بالغيب، الإنسان بدون الاعتصام بالله وبحبله لا يفلح، هذا حبل ممدود لك من السماء فتمسّك به، والله -عزّ وجلّ- في سورة الحج قد أمرنا بالاعتصام فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾[١] وقال لنا ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾[٢]، فالمفترض أن تتمسك بالله وبحبل الله وتؤمن بالغيب حتى تستقر نفسك لأن النفس هذه لو كانت وحدها ستتوه وتضيع وتخاف! فلا بد لها من

(١) الحج: ٧٨.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

اعتصام لتصل إلى الاستقرار، فكان الإيمان. ومهما تكلمنا عن الإيمان فلن ننتهي، مهما تكلمنا بالساعات الطوال حتى نأتي بأوجهه ونشرح كيف يوصل الإيمان إلى انشراح الصدر، فلن نستطيع أن نوفّي هذا الموضوع حقه. لكن تصور عندما تخرج من البيت وتقول: «بسمِ اللهِ توكَّلتُ على اللهِ لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ» وتقول الدعاء فيأتيك الخبر اليقيني أن الملائكة تقول عنك: «كُفِيتَ ووُقِيتَ وتنحَّى عنه الشَّيطانُ»[١]

فتخرج وأنت مطمئن أنك قد كُفيت، بأي شيء كُفيت؟ كُفيت بأن الله -عزّ وجلّ- قد وعدك بالكفاية لأنك دعوت بهذا الدعاء، فلو لم تكن تؤمن بالله ولا بالملائكة فلن يكون لهذا الدعاء معنى، لكن إيمانك بالله وبالملائكة سبّب لك أنك مطمئن أن الملائكة قالت لك: (قد كُفيت) فتعرف أنك كُفيت الشر وأهل الشر -الحمد لله- فمثل هذه الأمور تأتي بالطمأنينة للنفس. وإذا فقدت الإيمان بمثل هذه الامور تضطرب النفس!

٢- بالإيمان تصحّح تفكيرك وتنظر للحياة نظرة صحيحة.

هذه النقطة سنجدها في الحديث حين نقرأ، والحديث لن يأخذ نقطة واحدة، لكن سيتناول عدة نقاط من التي ناقشناها، لكن هذه نقطة مهمة: ستصحّح تفكيرك من خلال الإيمان.

٣- لتستقر نفسك لا بد من عبادة مليئة بالإيمان.

تستحضر ما تقول وما تفعل وتستحضر العبادات القلبية والعبادات الجارحيّة؛ لذا هذه العبادات تأتي بالسكينة، ولا ننسى أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- كان يقول لبلال: «أرِحْنا بها»[٢] إذًا العبادات تجلب الراحة النفسية، لا بد أن تأتي بالراحة لكن متى؟ لن تقفز عليها قفزًا، إنما ائْت

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥).

(٢) أخرجه أبو داوود (٤٩٨٥) وصححه الألباني.

بالإيمان وفكر بالحقائق الإيمانية قال تعالى مخبرًا عن الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ وتصحح تفكيرهم ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[١] الآن هم ما سمعوا من النبي -صلّى الله عليه وسلّم- آياتٍ تخبر عن هذا الأمر -مسألة اتخاذ الصاحبة والولد- لكنهم صحّحوا تفكيرهم، لما سمعوا عن عظمة الله علموا أن رب هذه العظمة مستحيل أن يتخذ صاحبة ولا ولدًا!

فإذًا هم أولًا آمنوا، قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾.

ثم خرجوا بنتيجة: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ مستحيل ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

فأنت لو كان عندك قوة إيمان تقول: (لا يمكن أن يظلم ربنا عباده، لا يمكن أن يكون هناك فعل ليس له حكمة، لا يمكن أن تكون وراء هذه الأحداث التي تحصل هباء منثورًا، لا يمكن أن أكون موجودًا وليس لي غاية ولا يمكن أن يحصل لي ضرّ وما لي وراءه أجر)...ولا يمكن، ولا يمكن، كما فكر الجن أنت كذلك عليك أن تصحح تفكيرك.

﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ هذا استنباط منهم، هم فهموا هذا من خلال معرفتهم لعظمة الله؛ لذلك ما أطيب سورة الجن في فهم هذه المعاني العظيمة التي تتصل بالإيمان وأثره على الإنسان وتغيير تفكيره، وكيف فجأة أصبح الجن ينتقدون الأوضاع التي كانوا يعيشون فيها ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[٢] دخل الإيمان فتغير التفكير مباشرة؛ لذلك سورة الجن من السور التي تفهمك كيف يفعل الإيمان

---

(١) الجن: ١-٣.

(٢) الجن: ٦.

الحقيقي في النفس، والشيخ السعدي -رحمه الله- قد كتب جملة جميلة جدًا يجب أن تكررها على نفسك من كلام الشيخ السعدي، وهو يتكلم عن إيمان الجن عبّر بقوله: "الإيمان الحقيقي وليس إيمان العادة والمربى والإلف" فهم سمعوا القرآن وتبيّن لهم أنه عجبًا، ثم أتت الفاء ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ ثم أتى تصحيح التفكير كله وانتقاد الأوضاع حتى أنك تلحظ أدب الجن في سورة الجن، ماذا قالوا عن السماء وما حصل فيها؟ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾ بنوا الفعل لمن لم يسمَّ فاعله، ما نسبوا الشر لله ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[1] هنا أتوا بالاسم صريحًا من أدبهم.

وسورة الجن من السور البديعة التي تفهمك كيف يفعل الإيمان إذا دخل إلى القلب وأنه يغير التفكير، اقرأها وافهمها لتعرف ما نقصد: (إيمان، وتغيير في التفكير، ثم تأتي العبادات). تقف تعبد ربنا تعرف معنى: «أرِحْنا بها يا بلالُ» وتعرف ما هي السكينة التي تنزل على العابد، وفي هذه النقطة اتفقنا على الكلام عن خلافها مباشرة، فأنت لكي تصل إلى الصحة النفسية يجب أن تعرف أن العبادات هي التي لها أثر في الصحة النفسية بعد الإيمان وبعد تصحيح التفكير، ويجب أن تعرف أن هناك عدو لك يشوش عليك ويخيفك، فيجب أن تعرف أن السكينة التي تنزل في العبادات تقويك على العدو.

٤- التعامل الصحيح مع الأزمات.

وهذا المعنى أيضًا داخل في الحديث الذي سنقرؤه -نسأل الله أن ينفعنا به- فسيبين هاتين النقطتين، فمسألة التعامل مع الأزمات مسألة مشهورة، أنت تعرف ما هي الحياة وتعرف أنه لا يوجد أحد مرتاح في الحياة، لم تأتِ له أي أزمة في حياته، الناس كلهم بهذه الطريقة؛ لأن هذه طبيعة الحياة، ربنا هكذا

---

(١) الجن: ١٠.

خلق الكون، إذًا عليك أن تعرف أنك لتبقى مرتاحًا نفسيًا اعرف طبيعة الحياة واعرف كيف تتعامل مع الأزمات، وهنا وضعنا ثلاث نقاط لكيفية التعامل مع الأزمات:

- اصبر عند الصدمة الأولى.
- ثم استدعِ مفاهيم الإيمان.
- ثم احتسب.

والاحتساب نور يضيء للإنسان حياته، عندما يقول: (أنا أتألم اليوم وغدًا ربنا يعطيني، أنا اليوم هنا أفقد كذا وكذا وغدًا ربنا عنده العوض لنا).

٥- شكر النعمة، أنت ستكون صاحب صحة نفسية لو شعرت بنعمة الله بدقة، لن تتحسر أبدًا، وهذه النقطة الخامسة متعلقة بالثانية أيضًا، أنت صحح مفهومك، (ما هو الفوز، ما هو النجاح، ما هي السعادة؟) من الإيمان ستعرف هذه الأمور، فحين تعرف حقيقة الفوز والنجاة والسعادة؛ ستشكر ربك على ما أنت عليه، يكفيك لتشعر بالنعمة أنك لو ضاقت نفسك تسجد فتشتكي لرب العالمين، لكن اسأل الملحد -الله يعيذنا ويحفظ شبابنا- : لمن يشتكي؟! ولذا هناك نسب فظيعة في مسألة الانتحار، هناك تقرير قريبًا خرج "أن في كل ٤٠ ثانية على مستوى العالم شخص ينتحر!" في أقل من دقيقة شخص ينتحر على مستوى العالم! والسبب معروف: دخول المادية الفظيعة وإحساس الإنسان الدائم بالفشل، دائما يشعر أنه فاشل ولا يعجب الناس والناس تضع مقاييس كثيرة صعبة للجمال وللقبول، فهذه شابة تشعر أنها لن تتزوج، وهذا شاب يشعر أنه لن يجد وظيفة، وهذه تشعر أنها ليست جميلة وهذه تشعر بالإحباط وهذه تشعر أنها لن تكون سعيدة وهذا يريد أن يكون تاجرًا ولم يتمكن من ذلك!

فالناس مشوشون وأفضل حل عندهم في النهاية: أن يقتلوا أنفسهم! الله يعيذنا ويحفظنا.

ونحن لا نفشي سرًا عندما نقول إن هذا الأمر دبّ في مجتمعنا، أنتم تسمعون هذا الكلام، وبذلك أكيد أن عندنا مشكلة، فلن نضع رؤوسنا في التراب، يجب أن نعيد حساباتنا وخصوصًا ونحن مقبلون على الاختبارات.

نصيحة للأمهات لوجه الله: لا نريد الكسل ولا اللعب، ولا علاقة لنا بموضوع التهاون في التعامل معهم، لكن يجب أن تعرف "أن ابنك ليس قدره على قدر الشهادة التي يأتي بها" هذا الإنسان لا يساوي شهادته، الشهادة تحصيل للقدرات التي أعطاه ربنا إياها، فلا تقدر نعمة الله بقدر هذه الشهادة التي يأتي بها. نسأل الله أن يرزقه العلم والإيمان والتقوى! لكن في النهاية الناس أتوا بشهادات كبيرة لكن كلٌ أتاه رزقه، الرزق ليس مربوطًا بالشهادة، ولا الإنسانية ولا الابن البار مربوط بالشهادة، تقولين له: (أنت بار لكن لست راضية عنك لأنك لم تأتِ في الشهادة بكذا وكذا)! هذه قدراته فلماذا تحطمينه؟ نحن الآن نحسب الحسبة تمام: هو يجتهد، المهم أن نعلمه أن يجتهد والنتيجة من عند رب العالمين، دورك أن تعلميه أن يجتهد، أنتِ كأمٍ لا تحددي للمتربي بصورة غير صائبة ما هو الفوز وما هو النجاح، بل إذا أردت الفوز الحقيقي، فقال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1] هذا هو الفوز الحقيقي إن أردته، لكن الإشكال في أن هذه المعايير ليست داخل عقولنا، أو تكون داخل عقلنا وفي الواقع نشعر بانفصام في أنفسنا!

(١) آل عمران: ١٨٥.

أكرر عليكم: نحن نريد أن تكون عنده حالة من الجدّ والاجتهاد؛ لأن هذه القيمة مهمة جدًا "قيمة المسؤولية" وشكر نعمة الله أنه تعلم وغيره لم يتعلم، لكن النتائج بيد الله. كن هادئًا ولا تحول البيت إلى معسكر بصورة تجعل الأبناء يكرهون المدارس والتعليم! وأنتم تلاحظون أن الأبناء يكرهون المدارس ويكرهون التعليم! فكل هذه المشاعر مرفوضة، هم لن يصلوا إلى أن يحبوا التعليم حبًا جمًّا لكن على الأقل لن يصلوا إلى درجة الكراهية.

دخلنا في هذا الأمر من أجل النقطة الخامسة المهمة وهي: أن نشكر ربنا، نحدد ما هو النجاح الحقيقي والسعادة الحقيقية وما هو الغنى، هذه المفاهيم يجب أن تُحدد لتشكر ربنا على ما أنعم به علينا.

نقرأ الرسالة التي بين أيدينا وهي شرح لحديث مثّل الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- فيه المؤمن ومثّل فيه المنافق والفاجر، وهذا الحديث تتميم لنقطتين من الخمس نقاط، النقطة الثانية وهي: تصحيح التفكير من خلال الإيمان.

والنقطة الرابعة وهي: التعامل مع الأزمات.

قال الإمام ابن رجب -رحمه الله- في رسالته: (غَايَة اَلنَّفْعِ فِي شَرْحِ حَدِيثِ تَمْثِيلِ اَلْمُؤَمِّنِ بِخَامَةِ اَلزَّرْعِ):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

- حَدِيث: تَمْثِيلُ اَلْمُؤَمِّنِ بِالْخَامَةِ مِنْ اَلزَّرْعِ، وَتَمْثِيل اَلْمُنَافِقِ وَالْفَاجِرِ بِالشَّجَرِ اَلْعِظَامَ.

خرَّج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «مَثَلُ المُؤْمِنِ كَمَثَلِ الخامَةِ مِنَ الزَّرعِ مِنْ حَيثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفأَتْهَا؛ فَإِذَا اعْتدلت تكفَّأُ بِالبَلاءِ.

والفَاجِرُ كَالأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعتدِلَةً حتَّى يقصمها اللهُ إذا شاءَ»[1] وهذا لفظ البخاري.

وخرّجا أيضًا من حديث كعب ابن مالك عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قال: «مثَلُ المُؤْمِنِ كَالخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ مَرَّةً، وتَعْدِلُهَا مَرَّةً.

ومَثَلُ المُنَافِقِ كَالأَرْزَةِ، لا تَزَالُ حتَّى يَكونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً واحِدَةً»[2]

وخرّجه الإمام أحمد بمعناه من حديث جابر ابن عبدالله عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ، وخرّجه البزّار من حديث أنس عن النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-.

بسم الله...الحديث واضح في تمثيل المؤمن بالخامة من الزرع وتمثيل المنافق والفاجر بالشجر العظام، هذا الحديث ورد في البخاري ومسلم، وما سنقرؤه الآن هو لفظ البخاري:

النبي -صلّى الله عليه وسلّم- يقول: (مَثَلُ المُؤْمِنِ كَمَثَلِ الخامَةِ مِنَ الزَّرعِ مِنْ حَيثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفأَتْهَا؛ فَإِذَا اعْتدلت تكفأ بِالبَلاءِ.) هذا وصف للمؤمن مثل خامة الزرع.

(والفَاجِرُ كَالأرزة صَمَّاء مُعتدِلَة حتَّى يقصمها الله إذا شاء) نبدأ بقراءة الهامش:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٤)، ومسلم (٢٨٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٣)، ومسلم (٢٨١٠).

١- (كفأتها أي: أمالتها)

(مِنْ حَيثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفأَتْهَا) كفأت ماذا؟ الضمير عائد على الشجرة، أي: أمالتها.

٢- (تكَفَّأُ بالبلاء: تقلب بالمصيبة، أي المؤمن إذا أصابه بلاء رضي بقدر الله تعالى، فإذا زال عنه قام واعتدل بشكر الله تعالى فانقلب البلاء خيرًا ورحمة)

٣- (صمَّاءَ: أي مُكْتنزةً لا تَخلْخُل فيها)

بمعنى أنها ثابتة قوية ما فيها تخلخل، الصمَّاء: بمعنى أنها لا تجويف فيها. فهذه إشارة إلى أنها قوية ما فيها تخلخلات يمكن أن تدخل الريح فيها.

ما معنى تمثيل المؤمن بالخامة من الزرع؟ يعني الزرع اللين الذي إذا جاءته الريح مالت به هنا وهنا، فهو ليس أصمَّا قويًا إنما هو متخلخل ليّن يأتيه الهواء من هنا ومن هنا.

نشبه المؤمن بالزرع اللين، والزرع يأتيه الريح والمؤمن تأتيه البلاءات.

إذًا أول التمثيل: أن المؤمن مثل خامة الزرع، يعني الزرع اللين، عكس الصماء التي هي: القوية الثابتة التي لا يتخللها الهواء (صماء، مصمتة).

الأمر الثاني: الريح تشبه المصائب.

ماذا يحصل في خامة الزرع؟ إذا أتتها الريح كفأتها، تميل ميلة كبيرة إلى الأرض ثم تعود وتقف، الآن المصائب تميل بالإنسان ويحصل عليه من الأحزان والآلام ما يحصل «فَإِذَا اعْتدلت تكفأ بِالبَلاءِ.» يعني الشجرة تأتيها الريح تنزلها وهي تعود وتتعايش مع هذه الريح، تأتيها من هنا ومن هنا، ومهما مالت وأتت تبقى في مكانها.

وكذا المؤمن؛ إذا أصابه بلاء رضي عن الله، فإذا زال البلاء عاد إلى مكانه وشكر ربنا وما أتى بسبب البلاء وقال: (ربنا ما أعطاني وربنا فعل بي كذا؛ إذًا سأفعل كذا وكذا) لأن هذه أحد النقاط المنتشرة عند الناس؛ إذا دعوا ربهم وما استجاب لهم وإذا وقع عليهم بلاء تجد الناس لا صبر ولا تعظيم لرب العالمين! تجدهم يمكن أن يتعدوا على رب العالمين في الكلام؛ فلذا الإنسان حين تنزل عليه ساعة البلاء تكون عنده آلام وأحزان، فيجب عليه إذا أتى الوسواس أن يدافع وساوس الشيطان، فإذا ذهب البلاء ثبت الأجر من جهة وثبت الإنسان على إيمانه من جهة، لا يكون وقع في نفسه ما يؤدي إلى كفران دينه أو الخروج عنه، مثل هذه الأمور تجدها عند بعض الناس ربما تكون تحليلًا للوقوع في الفسق والإلحاد والبعد. تكون -مثلًا- متزوجة ولها بيت وفشلت -والإنسان في بيته معرض للفشل ومعرض للنجاح- فلما فشلت تركت بيتها ودينها أيضًا!! والسبب: أن البلاء وقع عليها فتكفر بالله، وهنا (تكفر بالله) بمعنى: كفر النعمة أو الكفر الحقيقي!

فعليك أن تفهم أن المؤمن هذه حالته، كخامة الزرع تأتيه البلاءات من كل جهة وهو تكفأه هذه البلاءات، يمكن أن توصله إلى الأرض من كثرة قوتها لكنه يعود مرة أخرى ثابتًا ومستقيمًا على دينه ويُكتب له الأجر وهو راضٍ بالله.

في مقابل أن الكافر كالأرزة (الشجرة العظيمة القوية) التي كما تبين لنا أنها صماء مصمتة معتدلة، حتى لو أتت الريح لا تميل بها، ولا تهزها! تقف وقفة واحدة، هذه متى تذهب؟ حين يقصمها الله إذا شاء. يعني لا تذهب ولا ينزل عليها إلا هذا الذي يأخذها تمامًا ويقلعها من الأرض، تأتي ريح قوية جدًا أو زلزال قوي ويسقطها. أما خامة الزرع فوضعها مختلف.

فأنت الآن يمكن أن تجيب بهذا الحديث عن بعض التساؤلات التي تأتي مثل: ما سبب أن المؤمن يأتيه البلاء من هنا ومن هنا، في مقابل أن الكافر أو الفاسق أو غير العابد حياته مستقرة، والمؤمن يأتيه البلاء بشكل متواتر؟ هذا هو الجواب، بهذا تصحح تفكيرك؛ أن المؤمن كخامة الزرع، وكلما أتى البلاء رُفعت الدرجات وكُفّرت السيئات، وكلما أتى البلاء نذكر أنفسنا أنه كأننا ننظر إلى الشجرة وهي تنفض عنها الورق السيء أو المريض وتعود فتصبح صحيحة، وكلما أتاها البلاء كلما قوي حالها وهكذا المؤمن كلما أتاه البلاء ارتفعت درجته عند ربه.

قال:

وخرّجا أيضًا من حديث كعب ابن مالك عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ مَرَّةً، وتَعْدِلُهَا مَرَّةً. بمعنى: تميلها مرة وتعدلها مرة.

«ومَثَلُ المُنَافِقِ» وهناك كان مَثل الفاجر «كَالأَرْزَةِ، لا تَزَالُ حتَّى يَكونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً واحِدَةً»

انجعافها يعني: انقلاعها، لا تخرج من الأرض إلا مرة واحدة، ليس مثل المؤمن الذي تأتي له البلاءات من هنا ومن هنا.

قال:

- وَجْهُ تَمْثِيلِ اَلْمُؤَمَّنِ بِالْخَامَةِ مِنْ اَلزَّرْعِ :

ففي هذه الأحاديث أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ضرب مثلَ المؤمن في إصابة البلاء لجسده بخامة الزرع التي تُفيّئها الريح يمنة ويسرة.

والخامة: الرطبة من النبات.

إذًا: الخامة هي الرطبة من النبات، والنبي ضرب مثلًا للمؤمن هنا في إصابته البلاء لجسده وعندما نتقدم سنرى أنه ليس شرطًا أن يكون لجسده، يمكن أن يكون حتى لنفسه، حتى لماله...المصائب عمومًا.

على كل حال ابن رجب -رحمه الله- بدأ بالكلام حول إصابة البلاء لجسده، فكأن الريح هذه تُنزل البلاء على جسد الزرعة ومن ثمَّ المصائب تنزل على جسد الإنسان، لكن بعد ذلك تتسع المسألة ونرى -إن شاء الله- في مقابل ذلك مُثل الكافر والمنافق بالشجرة العظيمة. قال:

وَمَثَّل المنافق والفاجر بالأرزة وهي: الشجرة العظيمة التي لا تحركها الرياح ولا تزعزعها حتى يرسل الله عليها ريحًا عاصفًا فتقتلعها من الأرض دفعة واحدة. وقد قيل: إنها شجرة الصنوبر، قاله أبو عبيد وغيره. وقيل: إنها شجرة تشبه (شجر) الصنوبر.

شجر الصنوبر معروف، له شكل معين وهو من أقوى الأشجار، صماء يعني: مصمتة سيقانه ومرتفعة عالية، حين تأتي الريح لا تحركه ولا تحرك حتى أوراقه. في مقابل الخامة من الزرع التي تراها في الطرق هنا، إذا أردت أن تعرف اتجاه الريح، انظر ماذا تفعل في الزرع وكيف تكفِّئه. قال:

- فضيلة المؤمن على المنافق والفاجر:

ففي هذا فضيلة عظيمة للمؤمن بابتلائه في الدنيا في جسده بأنواع البلاء.

وتمييز له على الفاجر والمنافق بأنه لا يصيبه البلاء حتى يموت بحاله فيلقى الله بذنوبه كلها فيستحق العقوبة عليها.

الآن هنا بيّن المسألة: ما وجه تمثيل المؤمن بخامة الزرع وتمثيل الفاجر والمنافق بالأرزة؟ هذا دليل على فضيلة المؤمن، أين وجه الفضيلة؟ أن المؤمن

يُبتلى في الدنيا في جسده بأنواع البلاء، بأنواع الأمراض، ويمكن أن يكون هذا الابتلاء أيضًا في نَفْسِه كما أنه في جسده، أما الفاجر والمنافق فغالب أحوالهم أنهم لا يصيبهم البلاء في أبدانهم، كما قال -سبحانه وتعالى- في سورة المنافقون واصفًا -سبحانه وتعالى- نظرك إليهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾[1] معنى ذلك أن فيها من الصحة والقوة ووفرتها ما فيها والبلاء لا يمر على أبدانهم إلا يسيرًا جدًا، فأين الفضيلة؟ قال: (وتمييز له عَلَى الفاجر والمنافق بأنه لا يصيبه البلاء حتى يموت بحاله) لا تأتيه أمراضًا تكفر عنه سيئاته، بل يبقى صحيحًا (فيلقى الله بذنوبه كلها فيستحق العقوبة عليها.) إذًا ما هي الريح التي ستقلعه مرة واحدة؟ هي الموت. معناه أنه يبقى مثل الأرزة لا يُقلع ولا تَكفَّأه الريح يمنة ولا يسرة، يأخذه الموت مرة واحدة! وإذا أخذه الموت مرة واحدة لقي الله بجميع ذنوبه، وأما المؤمن فاليوم مزكومًا وغدًا رأسه تؤلمه وبعده معدته تؤلمه، وتأتيه عليه من البلاءات كل يوم ما يكفر عنه سيئاته. في مقابل الكافر والمنافق لا يأتيه البلاء أبدًا إلا ما ندر. فهذا سيلقى الله بذنوبه كلها، وبهذا نصحح تفكيرنا، أننا حين نجد أنفسنا -الحمد لله- قد ابتلينا في أجسادنا بأنواع من البلاءات، حتى الأشياء البسيطة التي تقع على الإنسان، كل هذا البلاء إنما وراؤه تكفير للذنوب بحيث يلقى الإنسان ربه وصفحته بيضاء وهذه من نعم الله.

تأتينا الآن نصوص في تكفير ذنوب المؤمن بالبلاء والمصائب عمومًا:

- نصوص في تكفير ذنوب المؤمن بالبلاء والمصائب:

والنصوص في تكفير ذنوب المؤمن بالبلاء والمصائب كثيرة جدًّا.

---

(١) المنافقون: ٤.

ففي (الصحيحين) عن عائشة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا»[1].

هذا النص من النصوص المشهورة، وبهذا يعرف الإنسان كيف يتصرف مع أي أزمة تمر به (مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا). تؤلمه فيُغفر بها ذنب، وعلى ذلك هنا بالمناسبة لا بد أن يُربّى الأبناء بهذا الأسلوب من التفكير، يسير في طريقه فيقع أو يصطدم بأي شيء، لا بد أن نقول له (إن هذا الذي يحصل نوع من النعم ليذكرك الله وينبهك ولتعلم أنك في حفظ الله ولا ترعى نفسك) لكن لا نقول له: (اضرب الباب واضرب الكرسي)! هذا يجعله إنسانًا سفيهًا! يجب أن يعرف أنه حتى الشوكة يشاكها الله -عزّ وجلّ- لا يضيعها له. أيضًا من الأحاديث:

وفيهما أيضًا عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكِهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[2]

هذا النص وسّع المسألة: (مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ) تعب يصيبك.

(وَلَا وَصَبٍ) من الأمراض.

(وَلَا هَمٍّ) ولا حتى الهمّ الذي يصيب النفس، يعني تهتمين لمسألة مستقبلية.

(وَلَا حَزَنٍ) على شيء مضى.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢).

(وَلَا أَذًى) أذى الناس عمومًا من الكلام، أو غيره.

(وَلَا غَمٍّ) قد تجدينه بدون سبب.

(حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكِهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ).

إذًا لا يوجد شيء مهدورًا، لا توجد آلام يشعر بها الإنسان نفسية ولا جسدية إلا أمامها الأجر؛ لذا تصور المرأة التي كانت تُصرع وأتت للنبي -صلّى الله عليه وسلّم- تخبره عن ذلك، والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- خيّرها بين أن تبقى على حالها، وهذا العمل سيدخلها إلى الجنة مباشرة، أو يدعو الله لها فتُشفى، فهي كانت عاقلة، رأت أن المرض -وقد ابتليت به- أكيد أنه مناسب لها، يعني الله -عزّ وجلّ- قد هيّأها لهذا المرض وأصبحت عندها القدرة على احتماله، وهو الطريق اليسير الذي سيوصلها إلى الجنة، فاختارت الاختيار الصحيح، ومن قوة حيائها طلبت من النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أن يدعو لها ألا تتكشّف، لأنها ترى أن هذا هو العيب العظيم في المرض، أنها تتكشف في وقت الصرع.

المقصد أن هذا شأن ابتُليت به، ومن هذا البلاء تدخل الجنة. فأنت تصور كل أهل البلاءات، الشيء الذي نقص فيهم وتعاملوا معه كما ينبغي هو الذي سيدخلهم جنات النعيم. فمن فقد بصره أو وُلد بدون بصر أو لا يستطيع السير أو غيره مما نعرف من ابتلاءات وعاهات على الخلق، هذه بعينها إذا رُبّي الإنسان على أن يرضى بما قسم الله ويعرف أن هذا الطريق الذي سيدخله إلى الجنة مباشرة، فإذا صلّى المصلون وصام الصائمون، هو يؤمن بالله ويعمل الفرائض ويصبر على هذا البلاء ويرضى فيكون هذا طريقه إلى جنات النعيم. لذا لا تضع مقياس أبدا لدرجات الناس في الجنة؛ لأنك لا تدري الناس على أي بلاء صابرون! وبأي شأن مما قدّره الله راضون، الله أعلم بما في نفوس الناس،

ما الذي يمرون به، في أي وضع يعيشون! فصبرهم ورضاهم على هذه الآلام تدخلهم الجنة، فسبحان من فتح للناس أبوابًا متعددة ما لها نهاية لدخول الجنة، وفي النهاية الدنيا بلغة منغصة، من عاش عشر سنوات أو عشرين أو ثلاثين أو أربعين أو خمسين أو ثمانين...كلها أيام ذهبت ما يذكر منها إلا الشيء اليسير! ففي النهاية الحياة أيام وتذهب وما للإنسان في هذا إلا الصبر والرضا بالله والطمع فيما عند الله، وهذا أهم شيء في تغيير التفكير، أنك أمام هذا تحتسب وتطمع فيما عند الله؛ لذلك الاحتساب نور يضيء حياة الإنسان ويريح فؤاده. لن يذهب الصداع والألم وحتى الشوكة التي شاكتك لن يذهب ألمها، سيُغفر ذنبك بها، وغدًا تُذكر أن هذا الذنب كُفّر بهذه الشوكة وهذا كُفّر بهذا الأذى وهذا كُفّر بهذا الغمّ، وهذا كُفّر بهذا الهم...وهكذا، فالاحتساب نور يضيء للإنسان، فهمنا هذا من هذا النص، نأتي للنص التالي ونرى كيف يزيد في هذا المعنى:

وفيهما أيضًا عن ابن مسعود عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَاتَ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ»[1].

وفي رواية: «يُصِيبُهُ أَذى -شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا- إِلَّا كَفّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»[2].

المؤمن هنا أيضًا شُبّه بالشجرة التي لها أغصان وأوراق، كأن الأوراق ذنوبه، حين يأتي الخريف تتساقط الأوراق...نفس الصورة هذه نتخيلها مع المرض، كأن المرض خريف على المؤمن يُسقط السيئات، فيقوم الإنسان من مرضه

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٧).

خاليًا من السيئات على حسب صبره ورضاه واحتسابه الأجر، فالمؤمن المسلم يجب أن يسلّم أمره لربه ويجب أن يرضى عن رب العالمين ويفكر في يوم الدين، هذا الفرق بين المؤمن والمنافق والفاجر، لا تنسوا أن المنافق في الظاهر كأنه مؤمن وفي الباطن هو خالٍ من الإيمان! المؤمن ممتلئ بالإيمان لكن إذا أتى عليه البلاء قد ينسى، لكن إذا ذكّره المذكّر مباشرة عاد إلى فهم هذه المسألة المستقرة في نفسه، استحضرها مباشرة ورضي عن الله واحتسب أن كل ألم يأتيه كفارة له عن سيئاته.

فسنعتبر المرض كالخريف الذي يُسقط الذنوب عن الإنسان المسلم كما يُسقط أوراق الشجرة عنها.

ننظر للحديث مرة أخرى:

(مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ) يعني أنه ليس شرطًا المرض، أحيانًا يأتيك الأذى من مرض أحبابك، من فقد الأحباب، يأتي الأذى في النفس والألم.

(إِلَّا حَاتَ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ) شبه الأمر بالخريف.

نرى الحديث التالي:

وخرج الإمام أحمد والنسائي والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لاَ تَزَالُ الْبَلَايَا بِالْعَبْدِ حَتَّى تَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا بِهِ خَطِيئَةٌ»[1].

هذه بشرى عظيمة؛ لأنه مَن هذا الذي يمشي على الأرض ما به خطيئة؟ فهذا إذا مات في تلك الساعة فمكانه الجنة مباشرة، وعلى ذلك لا توجد

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨).

خطايا وكبائر وأعمال يدخل عليها النار فيُطهّر، والإنسان حتى لو عمل معاصي فهو تحت مشيئة الله، لكن هذا يسير وما عليه خطيئة! (لاَ تَزَالُ الْبَلَايَا بِالْعَبْدِ حَتَّى تَتْرُكهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا بِهِ خَطِيئَةٌ). وقد ينظر الناس له وهم حزينون عليه، بلاء بعد بلاء، فيحزنوا عليه ولا يدرون أن هذا أرفعهم قدرًا عند رب العالمين؛ حُطّت عنه خطاياه فيمشي على الأرض ما عليه خطيئة، وهذه الحال لا يعلمها إلا الله؛ لأننا على الشروط الثلاثة وهي: الإيمان والرضا والاحتساب.

قال:

وخرج الإمام أحمد والترمذي وابن حبان من حديث أبي هريرة عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قال: «ما يَزالُ البلاءُ بالمُؤمِن والمُؤمِنةِ في جَسَدِه ومالِه حتَّى يَلقى اللهَ وما عليه خَطيئةٌ»[1].

هذا بشراه عظيمة لأنه سيموت ويلقى الله ما عليه خطيئة، وإذا لقي الله ما عليه خطيئة فسيدخل الجنة وهذا كأنه تعجيل بالبشرى؛ ولذا حين نفقد أحبابنا بعد أمراض وبعد أحوال مؤلمة نتذكر مثل هذا الحديث، أن هذا -الحمد لله- مات وقد كُفّرت خطاياه فيلقى رب العالمين وما عليه خطيئة فمصيره إلى جنات النعيم.

قال:

وفي (صحيح ابن حبان) عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْزِلَةُ فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلاَ يَزَالُ اللَّهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه(٢٣٩٩) بلفظ نفسه بدلًا من "جسده". وقال: حسن صحيح.

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٢٩٠٨).

هذا الرجل من أهل الإيمان، وله منزلة الله -عزّ وجلّ- جعلها له في الجنة، هذه المنزلة لا يبلغها بعمله، إنما يبلغها بالصبر على البلاء، فهناك أشخاص لا يُفتح لهم باب الطاعات الكثيرة المتنوعة، إنما يُفتح لهم باب البلاءات، ويعينهم الله وكلما استعانوا أعانهم وكلما تصبروا صبرهم الله، حتى يرتفعوا في الجنات ليس من باب الطاعات، إنما من باب الصبر على البلاءات! والناس إما أن يصبروا على الطاعة فيطيعوا وإما أن يصبروا على البلاءات فيرفعهم الله في جنات النعيم، ويكونون راضين عن رب العالمين.

إذًا البلاءات التي تنزل على الناس والأزمات التي يمرون بها، لا تجعلها عبارة عن ضغوط فتقول: (ضغوط العمل، وضغوط البيت، وضغوط الأبناء، وأنا أمام الضغوط لا أستطيع الصبر)! لا تفعل ذلك أنت مؤمن احتسب الأجر واعرف أن ما تعتبره ضغوطًا إنما هو باب فُتح لك واعتبره في حياتك كالخريف يُسقط عنك سيئاتك، واعتبره في حياتك كأنك ترقى دَرَج صعب صعوده، لكنه يرقيك إلى المعالي فإن لك منزلة عالية لا تصلها إلا بهذه الضغوط، ولا تقل: (أنا لا أستطيع أن أصبر) لا، فالله -عزّ وجلّ- لا يُنزل على الإنسان البلاء إلا من جهة أنه أعلم بقدرة الإنسان على احتمالها، وقد فتح باب عظيم وهو باب الاستعانة، تستعين يعينك الله، وتتصبر يصبرك الله، لكن تزيد على نفسك، تستسلم للوساوس وتقول: (أنا دائما مبتلى) أو تبحث عن كلمات لا تنفعك أبدا، مثلًا (من أين أتانا هذا؟ أصابتنا عين، حسدونا)! نفترض جدلًا أن المرض أتاك من الحسد. في النهاية هو مرض وأنت عبارة عن شخص مبتلى في هذا الموقف، أما الإعادة وتكرار أنك مبتلى من باب الحسد والعين فلن يفيد الإعادة فيه؛ لأنك في النهاية ابتُليت!

اليوم عند الناس برامج كثيرة حول الضغوط، وأنا مضغوط في عملي، وأنا مضغوط في بيتي، ومضغوط في تربية أبنائي، ودائمًا يحاول الناس الهرب من الضغوط من أجل أن لا يزعجهم أحدًا ويريدون ساعات طويلة من الهدوء، وحتى النساء تجدهم يقولون: (نجتمع ولا نريد أن نقول: يا ولد ويا بنت)! وكل الناس لا يريدون أن يتحملوا الضغوط! أين تذهب درجات الجنة وتكفير السيئات إذًا؟! أين يذهب هذا كله؟ هذه منزلة عظيمة، والحياة ليست مكانًا للاسترخاء الذي تريده، وهذا الكلام يجب أن تعرفه الشابات الصغار المنزعجات من أبنائهنّ: اليوم أنتِ منزعجة وغدًا تفترقون وكلّ منهم يستقلّ بحياته ويذهب إلى بيته وتتمنين أن يفتحوا الباب عليك ويجتمعوا عندك! فلا تبطري على نعمة الله، عيشي كل مرحلة بمرحلتها، وهذا كله لا يذهب سُدى، الضغط الذي تراه هذا رفعة درجات وتكفير سيئات، لا تستورد أفكار غيرك؛ ولذلك لا بد أن نتفق أن: الإيمان يصحح لنا الأفكار، إذا أتى وقت فيه مرض أو أتى وقت فيه ألم وأذى؛ اعرف أن هذا خريفك، لكن بماذا تخرج من الخريف؟ تخرج منه بتساقط السيئات، تخرج سالمًا من السيئات، فبشّر نفسك بهذه الأحاديث وأعدها على نفسك، والإنسان ينسى لكن المطلوب منا أن نذكر أنفسنا، أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- شبّه المؤمن بخامة الزرع فهو مثل الزرع تتكفّأه البلاءات، فهو ينتهي من هذا البلاء فيأتيه ما بعده. هل أنت تعتقد أن الدنيا للراحة؟ بل الدنيا بُلغة منغّصة تتبلغ بها الآخرة وطوال الطريق تأتيك المنّغصات. لكن هل المنغّصات والتكدير، تذهب سدى؟! لا، بل وراؤها تكفير سيئات ورفع درجات ورضا من رب العالمين، الحمد لله رب العالمين، انظر إلى هذا التفكير وانظر إلى غيرك ممن لا يعرف الإيمان، لا يعرف لماذا ابتلي مثل البهائم؛ تُبتلى ويُنقص عليها الأمر ولا تعرف لماذا ابتليت،

ولا تعرف لماذا رفع عنها البلاء! لكن أنت مؤمن تعرف أن هذا من رب العالمين وأن وراءه من الخير الكثير والدرجات العلا عند رب العالمين ما يشرح الصدر ويصبر الإنسان.

فهذه مفاهيم الضغوط وما يتصل بها التي تسبب في النهاية عند الناس الانتحار وغيره نحن في مأمن منها لكن حين تمتلئ قلوبنا إيمانًا، وحين تصبح هذه النصوص على بالنا دائمًا، حين نعرف حكمة رب العالمين في ذلك، حين نعرف كمال رب العالمين وأنه لا ينزل علينا من البلاء إلا ما ينفعنا ويناسبنا، وأنت حين تكون في البلاء لا تفكر بعقل غيرك أبدًا، فكر بعقلك الذي وهبك ربك إيّاه، وإيمانك الذي أعطاك ربنا إياه، وكلام الله وكلام رسوله، ماذا تريد أكثر من أن الله يبشر من قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[1] هذه نعمة عظيمة فاستقبلها، ورب العالمين لما جعل هذا الأمر بهذه الصورة لأنه جعل طبيعة الحياة التنغيص دائمًا، هذه النصوص يجب أن تكون على بالنا دائمًا حتى لا يستولي علينا الشيطان ويوصلنا إلى حالة متضخمة من الإحساس بالانزعاج، خفف على نفسك الأمر واعرف أنه عند رب العالمين درجات ترتفع وسيئات تُحطّ، فالحمد لله رب العالمين. غدًا الناس عند رب العالمين يحمدونه على ما أنزل عليهم من بلاء وستأتينا النصوص في ذلك.

(١) البقرة: ١٥٦-١٥٧.

نكمل هذه النصوص:

وفي (المسند) عن جابر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا يَمْرَضُ مُؤْمِنٌ وَلا مُؤْمِنَةٌ وَلا مُسْلِمٌ وَلا مُسْلِمَةٌ إِلَّا حَطَّ اللهُ عَنْهُ مِنْ خَطَايَاهُ»[1].

وخرجه ابن حبان وزاد: «كَمَا يَحُطُّ الوَرَقَ عِنِ الشَّجَرَةُ»[2].

وفيه عن أبي الدرداء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «مَا يَزَالُ الصُّدَاعَ وَالْمَلِيلَةَ بِالْمُؤْمِنِ؛ وَإِنَّ ذَنْبَهُ مِثْلُ أُحُدٍ، فَمَا يَدَعُهُ وَعَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ»[3].

انظر لهذه النعمة عظيمة (مَا يَزَالُ الصُّدَاعَ وَالْمَلِيلَةَ) وهي الحرارة التي يجدها الإنسان كأنها في العظم.

(بِالْمُؤْمِنِ) الشرط أن يكون مؤمنًا.

(وَإِنَّ ذَنْبَهُ مِثْلُ أُحُدٍ) من عظمة الذنب يكون مثل جبل أحد.

(فَمَا يَدَعُهُ) فلا يذهب الصداع والسخونة.

(وَعَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ) يطول الصداع على قدر التكفير، يخرج الصداع وتكون الذنوب خرجت وهي مثل جبل أحد! وهذا كله نِعم، وها هو الصداع قد مرّ مرات ومرات وأنت تعيش طيب ولا عليك، يمرّ هذا الصداع وينتهي ألمه بصبر يسير والحمد لله ويبقى أجره ثابتًا بعد ذلك، فلا تكن شديد الانزعاج وسريع الانفعال، كن هادئًا واقبل ما يأتي عليك من أقدار الله، نسأل الله أن يرزقنا الهدوء والسكينة وينزلها علينا وعلى أبنائنا اللهم آمين. قال:

---

(١) أخرجه أحمد (١٥١٤٦).

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٢٩٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٧٢٨).

وإنما يُعرف قدر البلاء إذا كُشِف الغطاء يوم القيامة، كما في الترمذي عن جابر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «يَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ البَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ قُرِضَتْ بِالمَقَارِيضِ فِي الدُّنْيَا»[1].

هذا هو الجزء الثاني: الاحتساب. (وإنما يُعرف قدر البلاء إذا كُشِف الغطاء يوم القيامة) ورأى أهل العافية أهل البلاء الذين وقعت عليهم بلاءات في الدنيا، أو أمراض فـ (يَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ) ممن لم تنزل عليهم البلاءات في الدنيا. (يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ البَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ التي في الدنيا قُرِضَتْ بِالمَقَارِيضِ فِي الدُّنْيَا) بسبب ما يجد أهل البلاء من أجور ومنازل عالية.

قال:

وفي (سنن أبي داود) عن عامر الرام قال: "جَلَسْتُ إِلَى النبي -صلّى الله عليه وسلّم- - ذَكَرَ الْأَسْقَامَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَصَابَهُ السَّقَمُ ثُمَّ أَعْفَاهُ اللَّهُ مِنْهُ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ، وَمَوْعِظَةً لَهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا مَرِضَ ثُمَّ أُعْفِيَ كَانَ كَالْبَعِيرِ، عَقَلَهُ أَهْلُهُ ثُمَّ أَرْسَلُوهُ، فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ وَلِمَ أَرْسَلُوهُ».

فَقَالَ رَجُلٌ مِمَّنْ حَوْلَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْأَسْقَامُ؟ وَاللَّهِ مَا مَرِضْتُ قَطُّ. قَالَ: «قُمْ عَنَّا فَلَسْتَ مِنَّا»[2].

الزيادة ضعيفة، الحديث صحيح إلى قوله: «وَلِمَ أَرْسَلُوهُ». وستمر علينا أحاديث ضعيفة نذكر ضعفها في وقتها.

هذه حصتنا اليوم وغدًا إن شاء الله نكمل.

السلام عليكم ورحمة الله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢).

(٢) أخرجه أبو داوود (٣٠٨٩).

اللقاء الثّالث

(٢) شرح رسالة غاية النفع

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله توكلنا على الله، كنا أمس بدأنا في الكلام حول البلاء وتمثيل المؤمن في الحديث بخامة الزرع، ويقابله تمثيل الفاجر أو المنافق بالأرزة، يعني: (الشجر العظام الذي لا تتخلّله الرياح ومن ثمّ لا يميل) ولذلك قال بعض أهل العلم: "إن الأرزة تشبه شجرة الصنوبر."

المقصد بتشبيه المؤمن هذا التشبيه: أن المؤمن دائمًا يتعرض للبلاءات، فإذا تعامل المؤمن مع البلاءات معاملة صحيحة ارتفعت درجته وحسن حاله عند ربه؛ ولذا ابن رجب ليساعدنا على فهم هذه المسألة أورد أحاديث فيها تكفير ذنوب المؤمن بالبلاء والمصائب.

ونحن كنا اتفقنا على أنك حين تؤمن يجب أن يكون الإيمان مصححًا لتفكيرك فتفهم أن البلاء الذي ينزل على الإنسان يكفر له ذنوبه، والمؤمن مثل خامة الزرع، مثل الشجرة الضعيفة التي تأتيها الريح من هنا ومن هنا فتكفأها.

دائمًا يأتي سؤال:

هل هذه البلاءات حين تنزل علينا، تكون علامة محبة الله لنا؟ هل نحن على درجة من الإيمان بحيث أنّا نتذكر حديث «وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ قومًا

ابتَلاهم»[1]؟ هل نفكر بهذه الطريقة أو نفكر بالطريقة الثانية وأن هذه البلاءات إنما هي بسبب الذنوب؛ لأنه ما وقع بلاء إلى بذنب؟ نقول طريقة لتميز بينهما في حالك وفي النهاية كلا الأمرين يوصل للآخر.

- متى ستكون البلايا من آثار المحبة وتدخل تحت حديث «وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ قومًا ابتَلاهم»؟

فلينظر الإنسان إلى حاله إذا أتته البلاءات وهو في حال استقامة؛ تائب عابد خائف راجٍ مستقيم على دين الله فإنه يكون حاله أقرب إلى المحبة، أصبحت البلاءات دليلًا واضحًا على المحبة، يدخل في حديث: «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ الصالحونَ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ»[2]

فهذا دليل على أن هذا الإنسان قوي في إيمانه.

لو أتينا للنظرة الثانية أن هذا بسبب الذنوب:

- متى نشعر أن هذا البلاء بسبب الذنوب؟

إذا رأى الإنسان وقت نزول المصائب أن سيره ليس على ما يرام، وإن كان في ظاهره مصلٍ صائم، لكن توجد خائنة الأعين وما تخفي الصدور، توجد الدسائس القلبية، يوجد سوء الظن بالله أو سوء الظن بالمسلمين، أو توجد أمور خطيرة في داخل النفس أنت تفعلها من هنا ومباشرة يأتيك البلاء المؤدِّب لك! فعليك أن تكون المؤدَّب الذي يتوب مباشرة ويستغفر عمّا صدر منه، وأنت تعرف نفسك فتعرف أنت الآن في أي حالة، هل في زيادة أو نقصان؟ لكن

(١) أخرجه الترمذي(٢٣٩٦) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني (٢٤/٢٤٥) (٦٢٩)، وصححه الألباني.

كلتا الحالتين تعود على بعضها لأن الله -عزّ وجلّ- إذا أحبّ العبد أوقع عليه من كفارة الذنوب ما يجعله يلقى ربه وهو خفيف من الذنوب.

نفترض الأمر الثاني؛ أن هذا بسبب الذنوب، لو افترضنا أن هذا بسبب الذنوب، هل كل مذنب تقع عليه البلاءات؟ لا، لو تقع البلاءات على كل مذنب لوقعت على الكفار، إنما هذا إشارة لمحبة الله؛ لأن الله يريد أن تلقاه وما عليك من خطيئة، فينزل عليك البلاءات حتى تخفف عنك البلاءات الذنوب وفي نفس الوقت تتذكر أنت فتتوب، وفي النهاية تصب كلها في بعضها:

- إما أنها من محبة الله لك لأنك مستقيم فتشبه الأنبياء في البلاءات.
- أو لها وجه آخر من المحبة: أن تقع عليك البلاءات وأنت مذنب وسائر في طريق خطأ، فالله يقوّم طريقك ويردك إلى الصراط المستقيم فتتذكر ذنوبك فتتوب فتلحق الله وما عليك ذنب.

ففي النهاية هي أكيد دليل على محبة الله لكن بطريقتين مختلفتين. من أجل ذلك كان أبو الدرداء -رضي الله عنه- يقول: "من فقه المرء أن يعرف إن كان في زيادة أو نقصان" زيادة أو نقصان في الإيمان، واليوم الناس يعرفون إن كانوا في زيادة أو نقصان في الكيلوجرامات في أوزانهم! لكن لا يفكرون إن كانوا في زيادة أو نقصان من جهة الإيمان، وهذه كارثة؛ لأن زيادة الإيمان تجعلك مثل الجبل، إذا أتت عليك رياح الفتن وهبتّ فأنت ثابت مثل الجبل لأنك ثقيل في زيادة.

أما إذا كنت في نقصان إيمان فإن رياح الفتن تهبّ عليك فتذهب معها! ولذلك نسمع حديث: «يُصبِحُ الرجلُ مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويُصبِحُ كافرًا»[١]

كيف يصبح كافرًا؟ يدخل في فتنة، ولا يلحظ نفسه ولا يزيد إيمانه ولا يخاف على ما في قلبه من اليقين، فيدخل في نوع فتنة تُذهب بإيمانه، فيصبح في الصباح ما كان بالأمس لا يمكن أن يقبله من أفكار وتصرفات واعتقادات، اليوم يقبله!! والسبب: أن إيمانه خفّ، الأمر الذي كان في الأمس يصبر عليه اليوم لا يستطيع الصبر عليه، الأمر الذي كان بالأمس يُثني عليه ويمدحه ويتمناه اليوم ليس على نفس الحال! فهذه كلها انقلابات تحدث للإنسان بسبب ضعف الإيمان. فلذا، كما قال النبي -صلّى الله عليه وسلّم- :

«إنَّ الإيمانَ ليَخلَقُ في جوفِ أحدِكم كما يَخْلَقُ الثوبُ، فاسأَلوا اللهَ أن يُجدِّدَ الإيمانَ في قلوبِكم»[٢]

نسأل الله أن يجدد لنا إيماننا...اللهم آمين.

نتذكر أصل الموضوع:

كنا نتكلم عن الصحة النفسية التي تحتاج منّا إيمانًا؛ إذًا:

الخطوة الأولى: الإيمان.

فكلما زدنا إيمانًا كلما استقرت أنفسنا وأصبحنا هادئين، وفسرنا الحياة والمواقف بالطريقة الصحيحة.

الخطوة الثانية: أن نصحح تفكيرنا عن طريق الإيمان.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩٨)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني (٧٠/١٤) وصححه الألباني.

وعرفنا أن المؤمن يُبتلى، تقع عليه بلاءات كثيرة، بماذا نفسر هذه البلاءات؟ على أي تفسير من الجهتين، سواء: ذنب والله يكفره، أو أن الله سيرفع درجتي بهذه البلاءات. ففي النهاية هذا دليل محبة الله، فكلما كان الإنسان مؤمنًا كلما ظهرت عليه آثار محبة الله عن طريق وقوع البلاء.

يقول أحدهم: (إذا كان الإيمان يزيد البلاء، فأنا أخاف من البلاء فلا أريد الإيمان)! الشيطان يجعلنا نفكر بهذه الطريقة؛ لذا يجب أن نصحح تفكيرنا بالإيمان، فحين يرتبط الإيمان بالبلاء والناس تخاف من البلاء، فيشعروا أن زيادة الإيمان تأتي بالبلاء. وهذا الفهم خاطئ، ليست زيادة الإيمان التي تأتي بالبلاء علينا أن نفهم المسألة جيدًا وسنضرب مثالًا دائمًا نكرره لنتصور الحقيقة:

الدنيا لا تخلو من بلاءات، كل الناس على طبيعة الدنيا سيقع عليهم بلاء لكن ردود فعلهم وأحوالهم هي التي تفترق بوجود الإيمان وعدم وجوده، سنفترض أن القلب مثل البلاط الموجود في الأرض، إذا علقنا في السقف كرة من حديد ورميناها على الأرض، ستكسر الأرض.

لكن لو أتينا بوسادة هوائية ووضعناها على الأرض، وتركنا الكرة الحديدية تقع من الأعلى، ستمتص الوسادة الهوائية شدة ثقل الكرة.

←الأرض مثل القلب.

←والكرة الحديدية مثل البلاء.

←والمخدة الهوائية مثل الإيمان.

بمعنى لو أن الإنسان معه إيمان ونزلت عليه الأقدار، سيكون الإيمان ممتصًا لحرارة الأقدار، ستأتي ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ

صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فتهدئ النفس، الإيمان يجعل البلاء مهما كان كبيرًا فيه الاحتساب وانتظار الثواب من رب العالمين واليقين بوعد الله أن الله يعوضه في الدنيا والآخرة.

فالإيمان يخفف على الإنسان والناس كلهم تنزل عليهم بلاءات، أهل الإيمان بلاؤهم في نظر الناس أشد لكن في حالتهم سيكونون أشد، أصبر، وأحسن، ولهم الدرجات العلا عند رب العالمين. بهذا نفهم أن الحياة ليست مكانًا للنزهة وليست مكانًا يخلو من بلاء، تقوم لتصلي ويكون بلاؤك هو ثقل بدنك، تريد أن تبر والديك ويكون بلاؤك -مثلًا- سوء طبع الوالدين، أنت تريد أن تبر لكن هم عندهم طباع سوء وأنت تجاهد، تريد أن تصل رحمك تجدهم يفعلون بك الأفاعيل وأنت صادق تريد أن تصل رحمك، فحتى في أبواب الطاعات هناك بلاءات.

المقصد: أن المؤمن لا ينتظر أن تكون الدنيا صافية وحين لا يجدها صافية يحزن ويقع في قلبه ما يقع من الآلام ويقول: (أنا مكتئب)! ولا نقصد هنا الاكتئاب الذي يمر، الاكتئاب يمر على كل الناس، وأستشهد بحديث ابن عباس -رضي الله عنه-حين كان في مجلس عمر -رضي الله عنه- وأتى رجل إلى عمر بن الخطاب وقال شيئًا فرد ابن عباس مباشرة -كان رده تلقائيًا- فقال له عمر: "مه" أي: (اسكت) قال ابن عباس: "فانطلقتُ إلى منزلي مكتئبًا حزينًا، فقلتُ: قد كنتُ نزلتُ من هذا بمنزلةٍ، ولا أراني إلا قد سقطتُ من نفسِه، فاضطجعتُ على فراشي حتى عادني نسوةُ أهلي وما بي وَجَع"[1]

فوقع في نفسه أن كيف لا أكون في منزلة جيدة عند عمر، وابن عباس شاب صغير، وعمر -رضي الله عنه- شيخ كبير، فلما قال له: (مه) شعر أنه

(١) رواه عبدالرزاق في "المصنف" (١١/ ٢١٧، ح ٢٠٣٦٨).

نزل من قلب عمر، ودخل في حالة من الاكتئاب لأن هناك مؤثر واضح. في تتمة الحديث أتاه عمر -رضي الله عنه- وكلمه في القصة.

الشاهد: أن الناس كلهم يأتيهم اكتئاب لأسباب طبيعية، هذا الاكتئاب الذي يمرّ ليس مقصدنا، نحن نقصد الاكتئاب الذي فيه تفقد الحياة لذتها، ولا يصبح عند الإنسان أي شيء يدفعه لأي شيء، فلا طعام ولا شراب ولا نوم لأشهر -الله يعيذنا من هذه البلاءات-. لكن أكيد أننا رأينا مثل هذا حولنا ويمر على الإنسان مثل هذه البلاءات. فمثل هذا **يقاومه الإيمان**؛ لأن الاكتئاب الذي نقصده في النقاش الذي يكون نتيجة عدم الاستقرار النفسي وسببه الرئيس: اليأس من الإصلاح ومن كل شيء، وهذا اليأس حين يزداد تأتي حالات الانتحار! يصبح في عقله لا طريق إلا التخلص من نفسه والشيطان يتملّكه تمامًا! كل هذا يردّه الإيمان، تصحيح التفكير من خلال الإيمان.

المشكلة أنه يمكن أن يكون هناك مصلٍ صائم لكن أيضا مكتئبًا لأنه ما صحح تفكيره بالإيمان، ما نظر للحياة كما ينبغي. لا تعتقد أن الحياة كاملة ولا تعتقد أن كل شيء يجب أن يكون كاملًا، وحتى أنت حين تعمل أعمالًا وتخطئ، لا تعتقد أن أعمالك يجب ألا يكون فيها خطأ، لا تكتئب وتنهار لأنك ما تممت كذا ولا حصلت على شهادة كذا وما حصل لك كذا، لا تكتئب! لو كان رزقك لأتاك، أنت ارضَ بما قسم الله لك بعدما تبذل جهدك، فإذا بذلت جهدك فاعلم أن البلاءات موجودة، كل الناس يبتلون بصورة أو بأخرى ومَن نجح في هذا الباب لم ينجح في الباب الثاني، ومَن حياته الاجتماعية ناجحة قد تكون حياته العملية ليست ناجحة! والصحيح في نفسه ربما ما كان صحيحًا في بدنه!

فأنت لا بد أن تشعر أن الدنيا بُلغة منغّصة، ليست مكانًا للكمال فلا تطلب فيها الكمال، لا تطلب فيها كمال نفسك -أنك لن تخطئ- ولا كمال الأحوال ولا كمال الناس ولا تطلب فيها مدح الخلق، كل هذه الأمور أثّرت على الناس.

كتير من النساء تقول: (أنا جدًا حسّاسة، وأي كلمة تؤلمني ولو انتقدني أحد في العمل أو في البيت أو لو صبي صغير انتقدني في عملي أو في شكلي أو طبخي من الممكن ألا أنام الليل بسبب هذا)! هذا كله ليس في مكانه، هذا الإحساس القوي تجاه كلام الناس ليس في مكانه، لذلك السلف كانوا يقولون: "مَن عرف الناس استراح فلا يطرب لمدحهم ولا يجزع لذمهم فإنهم سريعو الرضا سريعو السخط والهوى يحرّكهم" كيف تنتظر شيئًا ممن يحرّكهم الهوى؟! يحرّكهم طوال الوقت. يقومون من النوم ليسوا على خير حال، فحين يقابلونك يتهجمون عليك فتنهار لانتقادهم! لا تلتفت لنقدهم، بل سَل فقط: ما ميزاني عند الله؟ ولا تسل: ما ميزاني عند الناس؟ وهذا لا يعني أني لا أبالي بالناس، بمعنى أني أتهجم عليهم بل رحم الله امرئ جبّ الغيبة عن نفسه، كل المطلوب من النساء -خصوصًا- : التوازن، سواء التوازن في استقبال كلام الناس على أنفسنا أو في كلامنا مع الناس، يحتاج الأمر توازن، لا تكن حساسًا تجاه كلام الناس وتنسى أن هذا الإحساس الشديد تجاه الكلام من المفترض أن يكون تجاه كتاب الله، اشعر بقوة تجاه كتاب الله، هذه المشاعر التي تنفرط منك في كل اتجاه اجعلها لفهم كلام الله، وللإحساس بما يقول رب العالمين، وفّر أحاسيسك لما يقول رب العالمين ولا توفر أحاسيسك لما يقوله الناس! ومع ذلك الناس باب مفتوح من أبواب الأجر، الإحسان إليهم بالكلام والعمل، والصبر عليهم باب من أبواب الأجر، فالتوازن في كل شيء، لا يمكن أن يكون

هناك إنسان متوازن وعنده حالة الاضطراب، لكن حين نفقد التوازن يأتينا الاضطراب، وهذا مع مراعاة السن والتجارب، كلما كبر الإنسان في سنه وهو سائر على الطريق المستقيم، وكلما كثرت التجارب عنده؛ هانت الأمور عليه ووضع كل شيء في مكانه، وعرف أنه ليس كل شيء يؤثر عليك وكل شيء تتحطم له، وإذا فشلت اليوم غدًا تنجح، وإذا لم يكن هذا الباب طريقك فهناك باب آخر، والحمد لله رب العالمين، مهما أُغلقت الأبواب باب الله مفتوح، ومهما ضاقت السبل مفاتيح الفرج بيد رب العالمين وليست بيد الخلق، فأنت لك منقذ لا يمكن أن يغيب عنك، حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السماوات وما في الأرض، مَن ينجيك له ما في السماوات وما في الأرض فلماذا تكتئب؟ ولماذا تيأس من روح الله؟ لا لليأس من روح الله، إنما تنزل البلاءات فيفكر الإنسان أن هذا دليل على الإيمان وأن المؤمن كخامة الزرع وأن الريح تأتيها فتكفّئها، وكذلك البلاءات تنزل علينا فيكون هذا الحال، لا نيأس ولا تكون البلاءات آخر الدنيا إنما تكون بابًا من أبواب الاحتساب، نسأل الله أن ينير علينا في هذا الباب وفي كل باب، ويُذهب عنا ما يوقعه الشيطان من اليأس من روح الله. واليأس من روح الله أعظم جريمة تقع، نسأل الله أن يعيذنا نحن والمسلمون من اليأس من روحه، اللهم آمين.

نعود لقراءة الأدلة الدالة على تكفير ذنوب المؤمن بالبلاء والمصائب، كنا وصلنا إلى الحديث الذي في سنن أبي داوود:

قال الإمام ابن رجب -رحمه الله- في رسالته: (غَايَة اَلنَّفْعِ فِي شَرْحِ حَدِيثِ تَمْثِيلِ اَلْمُؤَمَّنِ بِخَامَةِ اَلزَّرْعِ):

وفي (سنن أبي داود) عن عامر الرام قال: "جَلَسْتُ إِلَى النبي -صلّى الله عليه وسلّم- فذَكَرَ الْأَسْقَامَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَصَابَهُ السَّقَمُ ثُمَّ أَعْفَاهُ اللَّهُ مِنْهُ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ، وَمَوْعِظَةً لَهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ.

وَإِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا مَرِضَ ثُمَّ أُعْفِيَ كَانَ كَالْبَعِيرِ، عَقَلَهُ أَهْلُهُ ثُمَّ أَرْسَلُوهُ، فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ وَلِمَ أَرْسَلُوهُ»[1].

الآن الفرق بين المؤمن والمنافق: كلاهما يقع عليه البلاء:

(إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَصَابَهُ السَّقَمُ ثُمَّ أَعْفَاهُ اللَّهُ مِنْهُ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ، وَمَوْعِظَةً لَهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ)

أي أن المؤمن حين يمرض ويجد نفسه غير قادر على القيام بالطاعات، وغير قادر على أداء الواجبات، تكون هذه الحالة له موعظة في مستقبله، فيعمل في صحته من أجل أن تُكتب له الأجور حال مرضه.

(وَمَوْعِظَةً لَهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ) بحيث أن الإنسان حين يكون مؤمنًا ويجد نفسه في لحظة خارت قواه وضعفت، وأصبح حتى على الذكر -أن يقول: (سبحان الله، الحمد لله)- لا قدرة له! سيفكر كثيرًا في خاتمته وسيلهج كثيرًا أن يُحسن الله له الختام؛ لأنك حين تمرض -حتى لو كان الزكام- وترتفع درجة حرارتك وتشعر أن بدنك كله عبارة عن مجموعة آلام ويصعب على لسانك حتى الذكر، هذه الحالة ستذكرك بلحظة الموت، ولحظة قبض الروح، وكيف سيكون الإنسان في شدة من شأنه إلا أن المؤمن تحيط به الملائكة الكرام، والله يعينه على قول كلمة: (لا إله إلا الله) فالآن حين يمرض الإنسان المرض العادي ويخرج منه، المرض يكون كفارة لذنبه، وفي نفس الوقت موعظة لما

(١) أخرجه أبو داوود (٣٠٨٩) وضعفه الألباني.

يستقبل، فكلما يتذكر عدم مقدرته على التسبيح، على القيام من مكانه والوضوء يطلب من ربنا أن يحسن له خاتمته ويكرر سؤال حسن الخاتمة، وأن يعينه في وقت صحته على الانتفاع من صحته، فالمؤمن هذه حالته وقت وقوع المرض، حالته أمران:

- (كَفَّارَةً لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ)
- (وَمَوْعِظَةً لَهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ)

فهو منتفع بالمرض ويصحح له تفكيره في المستقبل وفي نفس الوقت يكفر عنه سيئاته. ويقول لنفسه: (لو كنت طوال الشهر قمت الليل لكانت الملائكة الآن كتبت لي قيام الليل وأنا مريض) ففي المستقبل يحافظ على الطاعات خوفًا من أن يأتيه مرض فيمنعه من الطاعات، وفي نفس الوقت لو أتاه المرض وهو على الطاعة، كما في الحديث: «إذا مرِض العبدُ أو سافَر كُتِبَ له مِثلُ ما كان يَعمَلُ مُقيمًا صَحيحًا»[1]

فهذه هي حال المؤمن؛ تكفر له ذنوبه، تُكتب له طاعاته، تكون له موعظة في مستقبله.

أما الثاني: (وَإِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا مَرِضَ ثُمَّ أُعْفِيَ كَانَ كَالْبَعِيرِ، عَقَلَهُ أَهْلُهُ ثُمَّ أَرْسَلُوهُ، فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ وَلِمَ أَرْسَلُوهُ).

لا ينتفع من الأمور التي تمر عليه، لا ينتفع المنافق -سبحان الله- مثل التائه، هذا تراه أحيانًا في العلم، يكون الإنسان موجودًا في مجلس العلم لكن عينه في الناس والجدار وتائه ينظر في الأشياء ولا يفقه شيئًا! لا نقصد الإنقاص من هذا، لكن لو تصورت حالة التائه تمامًا تجدها مثل حالة هذا

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٦).

المنافق؛ تائهًا في الحياة، لا يفهم تربية الله، أنت تترجم الموقف مباشرة وهو ما عنده القدرة حتى على أن يستوعب جزء من فهم الموقف، فيقول النبي:

(وَإِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا مَرِضَ ثُمَّ أُعْفِيَ -عافاه الله- كَانَ كَالْبَعِيرِ) التشبيه هنا لعدم الفهم.

(عَقَلَهُ أَهْلُهُ -ربطوه ثم أرسلوه- ثُمَّ أَرْسَلُوهُ، فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ وَلِمَ أَرْسَلُوهُ)! لكن المؤمن يقول: (ربنا حبسني بالمرض كفارة لذنوبي وموعظة لمستقبلي) يفهم الدرس وهذا نقيسه في كل شأن، نفترض أن شخص يرى أمامه موقف خطأ يرى أحد يعتدي على أحد أو يغضب على أحد فيقول أحدهم: (لو كنت في هذا الموقف ما فعلت ذلك) يطمئن لنفسه! ثم تدور عليه الأحوال ويصبح في نفس الموقف، ويفعل لا كما أراد بل كما فعل غيره! فيقول لنفسه: (ربنا يربيني لأعرف قدراتي وأتوكل على ربي) لذا تتأدب في المرة الثانية وتقول: (يا رب سدد هذا أن يتصرف كما تحب وترضى، وسددني لو كنت في مكانه لفعل ما تحب وترضى) لكن لا يكون واثقًا في نفسه أنه (لو كنت في مكانه سأفعل ما يجب)! بهذا تكون تربى.

أما المنافق فيمر بالموقف مرات ومرات ولا يدري أن ربنا يربيه، ويقول: (لماذا يحصل لي هذا دائمًا) اسأل ربك أن يفهمك! فهذا كالبعير (عَقَلَهُ أَهْلُهُ - حبسوه- ثُمَّ أَرْسَلُوهُ) فلأنه بعير لا يفهم لم عقلوه ولم أرسلوه! وهكذا الناس مع تربية الله، المؤمن يتعلم كما ينبغي؛ يتعلم (قال الله وقال رسوله وقال الصحابة أولو العرفان) ويفهم الإيمان ويمتلئ قلبه إيمانًا، فتمر عليه المواقف ومباشرة يبذل جهده أن يفهم التربية التي أتته. وإذا لم يفهم يدعو الله أن يفهمه ما يرضيه، يطلب منه أن يفهمه خطأه ولماذا يتكرر عليه هذا الموقف، أين هو من الموقف، هل هو على صواب أو على خطأ، فيهتم هذا الإنسان أن

يكون ليس مثل المنافق الذي حين يمرض كأنه كالبعير لا يدري لم عقله أهله ولم أرسلوه.

المؤمن هذه حاله؛ كفارة لما مضى وموعظة له فيما يستقبل؛ لأنه يفهم، يترجم الأمور بالإيمان، يقول لنفسه: (أنت تنام على فراشك -وهذا ليس مرض الموت- مجرد زكام ولا تستطيع أن تقول بلسانك: (سبحان الله) غدًا حين تأتي سكرات الموت كيف ستقول: (لا إله إلا الله)؟!) فينهض مباشرة بفؤاده سائلًا ربه أن يحسن له الخاتمة، ويسأل ربه أن يكون آخر كلامه من الدنيا: (لا إله إلا الله) فيكون موعظة لمستقبله، لا أن تمر الأمور هكذا لا يدرسها ولا يفهمها.

مثلًا في يوم سابق أُعجب ببدنه ورأى أنه صحيح وأن عمره كذا ويسجد في الأرض وفلان يصلي على الكرسي. ثاني يوم مرض فيقول: (يبدو أني حسدت نفسي)! القضية ليست هكذا، نحن لا ننكر العين ولكن لو كان كل تفسير الحياة على العين لما بقي أحد غير محسود، لحسد العلماء الأكابر أنفسهم وانتهوا. هذا تفسير غير صحيح، أنت ألم تفتخر بقوتك؟ إذًا الله يربيك، يريك أنك ضعيف وأنه مالك الملك وأن الحول والقوة التي من عندك إنما هي من عنده، فتاتي ثاني يوم وأنت مؤدب وتقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) وتقول: (هذا الحول وهذه القوة إنما هما من الله) ولذلك من أجل سوء الفهم والتركيز على مسألة العين، حتى حين تقرأ سورة الكهف وتأتي قصة صاحب الجنتين، التي فيها أن أحد الشخصين افتخر بنفسه والثاني وعظه، فقال له: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[1] يعني: هذا الذي أملكه إنما هو بمشيئة الله وبقوة الله ليس بقوة من عندي، لم يقل له: (قل ذلك حتى لا تحسد مالك)! الموضوع ليس له علاقة بالحسد من قريب ولا من بعيد.

---

(١) الكهف: ٣٩.

على كل حال، أنا لا أتعرض لهذه المسالة لأنها شائكة جدًا وأي كلام فيها يُظن فيها أن المقصد إنكار العين، وفي نفس الوقت أصبح عند الناس أوهام وذنوب وضعف إيمان وأمور كثيرة نتركها كلها ونضع أعيننا على العين! وهذا إنما هو بسبب ضعف تصور تربية الله لنا، الله يربينا لنستقيم ويعظنا حتى لا نلقاه إلا ونحن صالحون لمجاورته في جنات النعيم، يجب أن تتربى لتنشأ كامل النفس وليس ناقص النفس؛ من أجل ذلك كل من عرف الله عرف حلمه ورحمته وأنه تواب وعرف عظمته -سبحانه وتعالى- وعرف أنه لا يترك عبده، لا بد أن يمرره بمواقف وأحداث ليعرف الحقائق ويعرف مَن هو رب العالمين ويعرف ضعف نفسه ويعرف عدم قدرته على مصالحه إلا حين يرشده الله إلى مصالحه، فنسأل الله أن يجعلنا في باب الاستسلام والانكسار والذل، ويجعلنا ممن كان الإيمان مستقرًا في قلبه كجبل أحد...اللهم آمين.

فهمنا أن هذا الحديث مهم جدًا لفهم مسألة تربية الله، نأتي للحديث التالي:

فَقَالَ رَجُلٌ مِمَّنْ حَوْلَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْأَسْقَامُ؟ وَاللَّهِ مَا مَرِضْتُ قَطُّ. قَالَ: «قُمْ عَنَّا فَلَسْتَ مِنَّا».

وهذا كما قال للذي سأله عن الحمى فلم يعرفها: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»[1] فجعل الفرق بين أهل الجنة وأهل النار: إصابة البلاء والمصائب، كما جعل ذلك فرقًا بين المؤمنين والمنافقين والفجار في هذه الأحاديث المذكورة ها هنا.

الآن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- سأله سائل عن الحمى فلم يعرفها، هذا الرجل لم يعرف الحمى، بمعنى أن هذا الرجل ما مرت عليه الحمى أبدًا، فالنبي

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٩٥).

-صلّى الله عليه وسلّم- قال: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا) ومقصد الحديث: (فجعل الفرق بين أهل الجنة وأهل النار: إصابة البلاء والمصائب، كما جعل ذلك فرقًا بين المؤمنين والمنافقين والفجار)

قلنا إن المنافق والفاجر مثل الشجرة العظيمة التي لا تأتيها الريح، لا تخرج من اللقاء إلا وأنت تحفظ هذا التّشبيه: (المنافق والفاجر مثل الأرزة، والمؤمن مثل خامة الزرع اللين.) المنافق والفاجر مثل الأرزة، الشجر العظام، الريح لا تحرك الأرزة إنما يأتي زلزال عظيم أو شأن عظيم يقلعه مرة واحدة؛ لذلك تأتي على الناس البلاءات وهذا لا يعرف ما هو البلاء! والمؤمن يعرف ذلك. لذلك كان هذا وصف المؤمنين من هنا ووصف المنافقين والفجار من جهة أخرى. قال:

وفي (المسند) عن أبي هريرة عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أنه ذكر أهل النار، فَقَالَ: «كُلُّ شَدِيدٍ جَعْظَرِيٍّ، هُمُ الَّذِينَ لَا يَأْلَمُونَ رُءُوسَهُمْ»[1].

(كُلُّ شَدِيدٍ) هذا وصف لأهل النار، ليس المقصود هنا الشدة في الحق، إنما شدة المنازعة في أمور الدنيا، كل الأمور عنده بالقسوة لا باللين؛ لأن القلب اللين ينظر للأمور بلين، وقد قال رسول الله: «ما كان الرفقُ في شيءٍ إلا زانَه ولا نُزِعَ من شيءٍ إلا شانَه»[2]

فالشدة في مكانها مناسبة لكن لا تكون الحياة كلها شدة.

فهذا الوصف الأول: (كُلُّ شَدِيدٍ) صاحب قسوة في شأن الدنيا، تجده حين يحاسبك عن حقه يحاسبك بطريقة قاسية، ينظر إلى الأمور بصورة قاسية، لكن حين نصف عمر -رضي الله عنه- بعد إسلامه نقول: (كان شديدًا في الحق

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٥٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٥٣١) باختلاف يسير، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٤٦٦).

ونصرة الدين) فهذه الشدة مطلوبة، لكن الشدة هنا مرفوضة، إنما هي للدنيا، قسوة وشدة طلبًا للمصالح.

الوصف الثاني أنه: (جَعْظَرِيٍّ) بمعنى أنه: فظ، كلامه غليظ وأسلوبه غليظ! بمعنى أنه ما أدبه الإيمان فالإيمان يجعل الإنسان لينًا، لكن هذا فيه صفتين تجعله من أهل النار، وكأن هذا وصفًا للنفاق، وصف المنافق: أنه شديد السعي للدنيا وعنده شدة حرص عليها فيتعامل مع الناس بقسوة.

أورد هذا الشاهد من أجل جملة: (هُمُ الَّذِينَ لَا يَأْلَمُونَ رُءُوسَهُمْ) وهذه الزيادة غير صحيحة؛ لذا لن نناقش هذا النص.

قال:

وبإسناده عن عمار بن ياسر أنه ذكر الأوجاع، فَقَالَ أعرابي عنده: ما اشتكيت قط، فَقَالَ عمار: ما أنت منا -أو لست منا- إِنَّ المسلم يبتلى ببلاء فتحط عنه ذنوبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها، وإن الكافر والفاجر يبتلى ببلاء، فمثله مثل البعير أُطلق، فلم يدر لم أُطلق، وعُقل فلم يدر لم عُقل[1].

وبإسناده عن كعب قال: أجد في التوراة: (لولا أن يحزن عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حديد، لا يصدع أبدًا)[2].

وعن الحسن قال: كان الرجل منهم -أو من المسلمين- إذا مرّ به عام لم يُصَبْ في نفسه ولا في ماله قال: (ما لنا أيودع الله عنا؟)![3].

---

(١) المرض والكفارات لابن أبي الدنيا (١٥).

(٢) المرض والكفارات لابن أبي الدنيا (١٠٣).

(٣) المرض والكفارات لابن أبي الدنيا (١٤٦).

وقال الحسن: إِنَّمَا أنتم بمنزلة الغرض يُرمى كل يوم، ليس من مَرْضَة إلا قد أصابتكم منه رمية، عَقِل مَن عَقِل، وجَهِل مَن جَهِل، حتى تجيء الرمية التي لا تُخطئ[1].

وعن صالح بن مسمار أنه دخل عَلَى مريض يعوده فَقَالَ له: (إِنَّ ربك قد عاتبك فأعتبه)[2].

كل هذه النصوص تدور حول نفس المعنى: (أن الإنسان المؤمن لا بدّ أن يُصاب منه).

نبدأ بكلام كعب، قال: أجد في التوراة: (لولا أن يحزن عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حديد، لا يصدع أبدًا).

بمعنى أن الصداع يصيب المؤمن فقط والكافر لا يعرف الصداع، لكن الله -عزّ وجلّ- لأجل ألّا يحزن المؤمن ما عصَب رأس الكافر بعصابة من حديد.

(لعصبت الكافر) أي: عَصَبَ رأسه. يعني في خلقته نفسها كان عَصَبه بعصابة من حديد حتى لا يصيبه الصداع! لكن هذا لم يحصل لئلا يحزن المؤمن.

كلام كعب هذا من التوراة وحقه علينا: ألا نصدقه ولا نكذبه إلا إذا وافق ما عندنا. وهو وافق ما عندنا؛ أن الصداع من باب الكفارات، فهنا معنى كلام كعب: أن المؤمن حين يصيبه الصداع يُكفّر عنه به، فكأن الصداع نعمة يحب الله أن يخص بها المؤمنين في الدنيا، ولا يعطي الكافرين منها شيء، لكن الناس لن يفهموا هذا الأمر لأن تصورهم أنه (لأني مؤمن أصدع ولأنه كافر لا

---

(١) المرض والكفارات لابن أبي الدنيا (١٧٥).

(٢) المرض والكفارات لابن أبي الدنيا (٨٧).

يصدع)! فقد يغلبه حب الدنيا، وهذا لم يحصل، لكن هذا معنى الدليل: أن الصداع نعمة لأنه كفارة لذنب العبد. نرى النص الثاني:

وعن الحسن قال: كان الرجل منهم -أو من المسلمين- إذا مر به عام لم يصب في نفسه ولا في ماله قال: (ما لنا أيودِع الله عنا؟)!.

أو: (أتودَّع الله منّا؟) هذه القراءة الثانية للنص، بمعنى: أن الله -عزّ وجلّ- تركنا، ما ابتلانا ببلاء ليخفف عنا ذنوبنا، فهم يرون البلاءات من باب تكفير الذنوب. هم لا يتمنون المرض، هذا الفهم خاطئ، لكن حين يأتي المرض وإن كان فيه آلام إلا أن له نظرة أخرى، يرون أنه كفارات وأنه سينفعنا عند رب العالمين.

(وقال الحسن: إِنَّمَا أنتم بمنزلة الغرض) كلام الحسن هذا يشبه حديث النبي -صلّى الله عليه وسلّم- لما: «خَطَّ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَطًّا مُرَبَّعًا، وخَطَّ خَطًّا في الوَسَطِ خَارِجًا منه، وخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إلى هذا الذي في الوَسَطِ مِن جَانِبِهِ الذي في الوَسَطِ، وقَالَ: هذا الإنْسَانُ، وهذا أجَلُهُ مُحِيطٌ به - أوْ: قدْ أحَاطَ به - وهذا الذي هو خَارِجٌ أمَلُهُ، وهذِه الخُطَطُ الصِّغَارُ الأعْرَاضُ، فإنْ أخْطَأَهُ هذا نَهَشَهُ هذا، وإنْ أخْطَأَهُ هذا نَهَشَهُ هذا.»[1]

(الأعْرَاضُ) هذه الخطوط التي على الجانبين من الخطين كأنها البلاءات التي يجب أن تأتي، ثم يأتي بلاء منه تكون النهاية.

(وقال الحسن: إِنَّمَا أنتم بمنزلة الغرض) الغرض يعني: مثل المكان الذي تُرمى إليه السهام، يقصد به الهدف الذي تُرسل إليها السهام.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٧).

(يرمى كل يوم -بالأقدار- ليس من مرضة إلا قد أصابتكم منه رمية) يوم أسنانك تؤلمك ويوم عينك، ويوم أذنك ويوم يدك ويوم قدمك تؤلمك، وأحيانًا أنت تؤلم نفسك مثل تقليم الأظافر، قد تقلمها بطريقة خطأ فيبقى الأصبع يؤلمك أيامًا! فأنت بمثابة الغرض تصيبك منه رمية بشكل أو بآخر.

(عَقِل مَن عَقِل، وجَهِل مَن جَهِل) لذا لا توسوس هذه كلها أمور قد كتبها الله، نقول: (لا توسوس) ولا نقول: (لا تُعالج) بل تعالج ولكن لا توسوس وتقول: (إن هذا المرض عندنا وراثي وأهلنا فعلوا)! أنت بمثابة الغرض، إذا كان سيأتيك السهم، سيأتيك لا حل لك، لكن لا تعِش خائفًا، بل عِش متوكلًا على رب العالمين.

(حتى تجيء الرمية التي لا تخطئ) من البداية أنت كالهدف، لم تأتِ الرمية في قلب الهدف، أتت على اليمين أو الشمال، أو في الأعلى أو في الأسفل، إلى أن تأتي الرمية التي فيها موت الإنسان وهذه من الممكن أن تكون وأنت نائم على فراشك -بسكتة قلبية- أو في مرض أو حادث...في النهاية ستأتي هذه الرمية، نسأل الله أن يجعلها على توبة وشهادة!

(وعن صالح بن مسمار أنه دخل عَلَى مريض يعوده فَقَالَ له: إِنَّ ربك قد عاتبك فأعتبه) فأزل العتب، كأنه يقصد بذلك أنه أرسل إليك ما ينبهك على خطئك (فأعتبه) أي: فأزل العتب بالتوبة والاستغفار والرضا عن الله، والرضا بما قسم الله.

ننتقل الآن إلى فوائد تمثيل المؤمن بالزرع وتمثيل المنافق والفاجر بالشجر العظام، كل ما مر يريد ابن رجب -رحمه الله- أن يوصلنا إلى **أن المؤمن تكفّر ذنوبه بالبلاء والمصائب**، الآن نعود إلى تمثيل المؤمن بخامة الزرع.

- فوائد تمثيل المؤمن بالزرع، وتمثيل المنافق والفاجر بالشجر العظام:

واعلم أن تمثيل المؤمن بالزرع، وتمثيل المنافق والفاجر بالشجر العظام يشتمل عَلَى فوائد جليلة نذكر ما يسر اللَّه منها:

فمنها أن الزرع ضعيف مُستضعَف والشجر قويٌ مستكبرٌ متعاظمٌ. فالشجر لا يضعُف من حر ولا برد، ولا من كثرة ماء ولا من ريح، والزرع بخلاف ذلك، وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر، وبين أهل الجنة والنار.

كما في (الصحيحين) عن حارثة بن وهب عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ. أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بأهل النار؟ كل عتل جَوَاظٍ مُستكبر»[1]

أول فائدة ذكرها ابن رجب -رحمه الله- في تمثيل المؤمن بالزرع وتمثيل المنافق والفاجر بالشجر العظام، قال:

(واعلم أن تمثيل المؤمن بالزرع، وتمثيل المنافق والفاجر بالشجر العظام يشتمل عَلَى فوائد جليلة نذكر ما يسر اللَّه منها:

فمنها أن الزرع ضعيف مُستضعَف) هو ضعيف والناس تستضعفه؛ ولذلك في بعض الأراضي تجد هذا الزرع يمكن أن يكون قصير إلى حد أن تدهسه الأقدام! فهو ضعيف والناس يستضعفونه.

(والشجر قويٌ مستكبرٌ متعاظمٌ.) هنا الكافر والمنافق والفاجر كلهم سواء، فالكافر والمنافق والفاجر يشبه الشجر، والمؤمن يشبه الزرع سيظهر لنا هذا في الأحاديث والشجر القوي العالي مستكبر، و(مستكبرٌ) هنا لا يذمه، بل المقصد أنه أعلى من أن يدهسه أحد.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣).

(فالشجر لا يضعُف من حر ولا برد) بهذا تتضح كلمة (مستكبر) يعني: أعلى من التأثر.

(ولا من كثرة ماء ولا من ريح، والزرع بخلاف ذلك) لو صبوا عليه ماءً زائدًا لغرق، يأتي ريح أو هواء يحصل له ما يحصل!

(وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر، وبين أهل الجنة والنار.) هنا الكافر والمنافق والفاجر كلهم سواء، فالكافر والمنافق والفاجر، كلاهم يشبه الشجر، والمؤمن يشبه الزرع سيظهر لنا هذا في الأحاديث:

(أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ) وهنا دائما تأتينا مشكلة: هل المطلوب منا أن نكون ضعفاء، ونفقد الثقة في أنفسنا؟! وهذه الكلمات التي توهمك أن الشريعة أمرتك أن تكون في حال من الضعف المذموم! ليس هذا هو المقصود، سيُفهم هذا حين نفهم المقابل، حينها سنعرف ما نحن منهيون عنه:

(أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بأهل النار؟ كل عتل) في الهامش: هو الغليظ الجافي.

(جوّاظ) هو: الضخم المختال في مشيته.

(مستكبر) نعرف المستكبر.

(الضعيف المُتضعِّف) حالته عكس العتل الغليظ الجافي القاسي.

إذًا المؤمن إنسان لين هين ليس مستكبرًا ولا يرى نفسه أحسن من الخلق وهو متواضع، فلا يختلط علينا الشأن، الشريعة لا تأمرك بحالة من الضعف بحيث أنك تُهان! وتصور النص لتفهم هذا المعنى، قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1]

---

(١) المائدة: ٥٤.

فأنت في حال من اللين، وأي مفهوم تأمرنا به الشريعة، تأمرنا فيه بالتوازن، حتى لما أمرتنا بالإنفاق في سبيل الله لم تأمرنا ببسط اليد تمامًا ولا بقبض اليد، إنما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[1] إذًا لا تبسطها كل البسط فتصبح ملومًا على هذا الفعل، ولا تمسكها كل المسك، إنما التوازن.

دائمًا حين يأتي مفهوم علينا أن لا نتطرف في فهمه، فهذا خطأ! لا يعني أنك أُمرت ببسط اليد أن تُنفق كل ما في جيبك ولا تبقي شيئًا لنفسك! ولا بالعكس تمسك كل شيء ولا تعطي، إنما حين أقبل أعرابي على النبي -صلى الله عليه وسلم- عاد إلى قومه فقال: (رأيت رجلًا ينفق نفقة من لا يخشى الفقر.) يعني واثق بربه الثقة التامة، ينفق وهو متأكد أن العوض سيأتيه، فالمسالة تحتاج إلى توازن.

الشريعة لا تريد منا أن نذل أنفسنا بل تريد أن نكون في حال من اللين والتواضع للمؤمنين وعدم الاستكبار؛ فهذا سبب لأن نكون من أهل الجنة، خصوصًا أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قال: «من تواضعَ للَّهِ رفعَه اللَّه»[2]

لا يقصد من التواضع مدح الناس له، إنما تواضع لقصد وجه الله ليثني الله عليه فيرفعه الله، فلا تظن أن هذا يخالف سيرك الطبيعي في الحياة وأن الشريعة تريد منك أن تكون مهزوز الشخصية...ومن هذا الكلام الذي يخرج علينا! وفي نفس الوقت من الضروري أن نفهم مصطلح الثقة في النفس وما يدور حوله وما هو الصواب في هذا الكلام، هل هذا المصطلح شرعي، أو

---

(١) الإسراء: ٢٩.

(٢) أخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٧٧١١).

المفترض أن يكون عندنا اصطلاح صحيح لئلا ندخل في باب: (كل عتل مستكبر جوّاظ) من الجهة الأخرى؟ إن شاء الله يكون هذا نقاشنا غدًا بأمر الله.

جزاكم الله خيرًا

السلام عليكم ورحمة الله

اللقاء الرّابع

(٣) شرح رسالة غاية النفع

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❁ بسم الله توكلنا على الله، لا زلنا نتدارس هذا الحديث العظيم وهو:

(تَمْثِيلِ اَلْمُؤَمَّنِ بِخَامَةِ اَلزَّرْعِ)

والهدف من دراسة هذا الحديث: التصور اليقيني أن الإنسان لا زال في بلاء وأن الحياة هذه هي طبيعتها. لا تغتمّ من ورود البلاءات عليك إنما اشكر الله -عزّ وجلّ- على النعم التي تعيشها، يعني عينك لا تخطئ نعم الله، يجب أن تذكر نفسك طوال الوقت بنعم الله عليك وأن البلاءات لا بد منها وأن هذه هي طبيعة الحياة.

انتهينا من هذا المعنى وبدأنا في

- (فوائد تمثيل المؤمن بالزرع، وتمثيل المنافق والفاجر بالشجر العظام)

نحن قرأنا هذه الرسالة من أجل: حصول الصحة النفسية؛ هذه الرسالة حين نفهمها جيدًا نعرف أن الدنيا لا يمكن أن تخلو من بلاء، فحين تأتيك الوساوس أنك قليل الحظ في الدنيا، أو تأتيك الأفكار التي فيها تشويش وإحساس بالحزن والهمّ، وأن ما لك نصيب وأن من هنا ينقصك كذا ومن هنا ينقصك كذا...

أولًا: ذكر نفسك أن هذه حال الدنيا، وأنه لا بد أن يصيبك ما يصيبك في الدنيا، وهذا كل الخلق في الدنيا لا بد أن يصيبهم، إلا أن المؤمن مثل خامة

الزرع، تأتيها الرياح فتكفأها، لكنه يذكر نعمة الله، وأول ما تزول مثل هذه الأمور عنه يعود معتدلًا، لا تهجم عليه الوساوس فيصل إلى حد اليأس، وأعظم عدو للإيمان: اليأس، الإحساس أن الدنيا انتهت ويشعر الإنسان أنه لا منفذ له في الحياة! لا، أبدًا بل كل شيء تمر به له منفذ، المشكلة: أنه لا يوجد وعي، الله -عزّ وجلّ- قال: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[1] لا بد أن تكون أذنك واعية، حين تأتيك النصوص المتتابعة لا بد أن تعي هذه النصوص وتعي الوضع الذي أنت فيه، وتعي الفكرة الأولى من أين أتتك؟ لماذا اكتأبت الآن؟ ارجع وارجع إلى أن تعرف من أين وسوس لك الشيطان، ماذا قال لك؟ قال لك: (أولادك لن يصلحوا)! لم؟! يصلحون -إن شاء الله- قلوبهم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، الله يهديهم ويصلحهم ويرشدهم، وإذا حصل ما حصل منهم فممكن أن ترى الصلاح بعينيك ويمكن أن تموت والله يصلحهم بعد ذلك. إذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي أتى بالرسالة، قال له الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[2] إما نريك نصرة الدين أو نتوفاك قبل أن يُنصر الدين. فالأمور على الهين، ومهما عظمت المشاكل فهي في نهاية الأمر ابتلاءات واختبارات ولك الأجر فيها، وكل ما مر علينا من النصوص يخبرنا أنه حتى الشوكة نشاكها الحمد لله بسبب الإيمان نحن مأجورون عليها، والدنيا الجزء الأول والأيسر والأسهل من القصة، والجزء الذي فيه العمل، بعد ذلك يأتيك الجزء الأعظم من القصة؛ الحياة البرزخية والحياة الأخروية، فلا يكن تركيزك على هذه القطعة الصغيرة هنا، أن تتصور أن حياتك فقط هنا! ونتذكر مرة أخرى بقول الذين يريدون الحياة الدنيا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

(١) الحاقة: ١٢.

(٢) يونس: ٤٦.

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾[1] يجب أن تكون صابرًا لتصل إلى الشأن، لذلك لما قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾[2] أتاهم الاستغراب، فقالوا: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾[3]

في ذاك الوقت استوعبوا المسائل.

اتفقنا من أول الأمر: أنت مؤمن؛ صحح تفكيرك بالإيمان، قارون خرج على قوم موسى؛ لأنه كان من قوم موسى فبغى عليهم، خرج على قومه فانقسموا إلى قسمين، وسبب الانقسام: أسلوبهم في التفكير:

←قوم يريدون الحياة الدنيا.

←قوم آتاهم الله علمًا.

فاختلفوا في التفكير ولما خسف الله به وبداره الأرض كانت النتيجة: أن يتعدّل تفكيرهم؛ عرفوا أن ربنا لا يُفلح القوم الكافرين، عرفوا أنه لولا رحمة الله لخسف بهم أيضًا لأنهم ظنوا أن الحياة الدنيا هي الحظ العظيم!

إذًا يجب أن يصيبك في الدنيا ما يصيبك، ثم -كما مر معنا في النصوص- يوم القيامة يتمنى أهل العافية لو أنهم نشروا بالمناشير لما يجدون لأهل البلاء من منزلة، وعرفنا أن الرجل تصيبه الآلام والأمراض والأحزان وتصيبه الأمراض؛ فيمشي على الأرض وما عليه من خطيئة! مَن هذا الذي يمشي على الأرض ما عليه من خطيئة؟! ما أطيب حياته ستكون، وما أحسن مماته وقتما يموت! لأنه سيلقى ربه وهو راضٍ عنه، فالحمد لله رب العالمين.

---

(١) القصص: ٧٩-٨٠.

(٢) القصص: ٨١.

(٣) القصص: ٨٢.

إذًا يجب أن تعي أنت كيف تفكر، من أين أتتك الفكرة التي كدّرتك وأصابتك بالأحزان المتتالية، يجب أن تسأل: من أين أتت الفكرة:

- إذا كان محبوب مفقود؛ فالله يجبر القلوب ويجعل اللقاء في جنات النعيم.
- وإذا كان نقص في الأبدان؛ فهي كفارات وغدًا تجد العوض.
- وإذا كان نقص في المال فالناس قد قسمت لهم هذه الأمور قبل أن يخلق الله السماوات والأرض، فارضَ بما عندك الله يبارك لك ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]

إذًا عليك أن تبحث أين الإشكال ومكان الإشكال توسل إلى رب العالمين أن يفرج عليك وييسر الأمور، والله -عزّ وجلّ- ابتلى الناس بكل هذه البلاءات ليصح منهم الفزع إليه، واللجوء إليه، والرغبة والرهبة إليه، لكن لو الأمور كلها موجودة ومستقرة، فالناس عادة يركنون إلى الدنيا ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[2] يعني إذا أتت النعم فقليل من يشكرها، وأما إذا أتت البلاءات فالناس يفزعون إلى رب العالمين، فنسأل الله أن يجعلنا في البلاء من الصابرين وفي النعماء من الشاكرين!

وبهذا الأسلوب في التفكير يصل الإنسان إلى بداية الصحة النفسية؛ بأن يعلم:

←أن الدنيا بلاء ولا يمكن تغيير طبيعة الدنيا.

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) سبأ: ١٣.

←وأن البلاء يحتاج أن تنظر له نظرة جيدة لتستفيد منه في تربية نفسك، في حسناتك والاحتساب.

←والأمر الثالث: حين تكون في وسط البلاء، هل من المعقول أن لا تحيط بك النعم؟ إذا تألم رأسك فبقية بدنك أليس صحيحًا، إذا آلمتك أسنانك بقية أطرافك أليست صحيحة؟ الحمد لله رب العالمين، أليس أبناؤك في صحة جيدة؟ الحمد لله رب العالمين، لا تنس بقية النعم، لا تكن متشائمًا ولا تكن كفورًا بنعم الله لا تكفر بنعم الله لتبقى صحيحًا نفسيًا.

فالصبر والشكر عبادتان تصلحان حياة الإنسان، لكن فكر دائمًا: من أين أتانا الوسواس، ما مبدأ الكلام؟ ماذا يقول لي الشيطان؟ فالقضية الأساسية أن تعي كلام الشيطان، من أين أتى، من أين وسوس لك وأين خرّب عليك؟ حين تعي ذلك بأذن واعية وتعي النصوص ومقاصدها وكيف يريد منك رب العالمين أن تفكر وماذا تفهم؛ تُعالج النفس -إن شاء الله- رويدًا رويدًا، نسأل الله أن يشفينا جميعًا من أمراض القلوب وأمراض الأبدان اللهم آمين.

ثم تركنا المسألة المتصلة بالصحة النفسية وانتقلنا إلى

- (فوائد تمثيل المؤمن بالزرع، وتمثيل المنافق والفاجر بالشجر العظام)

وبدأت المسألة بأن الزرع ضعيف مستضعف، والشجر قوي مستكبر متعاظم، فالشجر لا يضعُف من حر ولا برد، وهنا يجب أن نؤكد على المعنى؛ لنفهم هذا النص جيدًا، فقد قال رسول الله: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ -صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ- : كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لو أقْسَمَ علَى اللهِ لأَبَرَّهُ»

وليس المقصود هنا أن تكون صاحب ضعف نفسي أو صاحب عدم يقين، إنما المقصود هنا ثلاثة أمور محددة، وفي هذا الكلام سنناقش سويًا: هل المطلوب أن أثق في نفسي أو أن لا أثق في نفسي؟

القضية ليس لها علاقة بهذا الموضوع أبدًا لكن سنناقش مسألة الثقة بالنفس عندما نصل لهذا الوصف حتى لا تختلط علينا الأمور ونتصور أن الإسلام يدعونا لنكون ضعفاء ومنكسرين وما لنا شخصيات، ليس هذا ما يدعونا إليه الإسلام، وسيتبين هذا في النقاش.

نعود إلى مسألة: الثقة بالنفس، هذه الكلمة التي تدور وتتكرر وكثيرًا ما يأتي في تشخيص المشاكل النفسية أنهم يقولون: (إن هذا ما عنده ثقة في نفسه لذا عنده مشاكل نفسية) فنود أن نعرف أن هذه الكلمة تجري غالبًا على اللسان لا يُقصد بها ما نقصده في المحظور الشرعي، يعني كثير من الناس يستخدمون مصطلح "الثقة في النفس" ويقصدون معنى بسيط، لا يقصدون المعنى المنهي عنه؛ لأن هذه الكلمة في الأصل منهي عنها، أن تقول: (أنا واثق في نفسي) لأنك في الحديث في أذكار الصباح والمساء تقول: «لا تَكِلْني إلى نفسي طرفَةَ عَينٍ أبدًا»[1]

وفي الرواية الأخرى: «وأشهَدُ أنَّك إنْ تَكِلْني إلى نفسي تَكِلْني إلى ضَيعةٍ وعَورةٍ وذَنبٍ وخطيئةٍ وإنِّي إنْ أثِقُ إلَّا برحمتِك»[2]

يعني الثقة المفترض أن تكون في رحمة رب العالمين، وأنا لا أثق في أي شيء ثانٍ، أثق في رحمتك، إذًا هو في الأساس المفترض أن يكون هناك توحيد في الثقة، لا تضع ثقتك إلا في رب العالمين،

---

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٤٠٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٦٦٦).

إذًا هناك ثلاث نقاط في موضوع الثقة في النفس:

١. أن الثقة لا تكون إلا برب العالمين.

للتنبيه نؤكد أن الناس حين يقولون: (أنا أثق في نفسي) لا يقصدون الجزء المنهي عنه، والذي نناقشه، إنما يقصدون كلمة يعبرون بها عن معنى يجدونه صحيحًا. فلا تحاسب الناس حين يقولون: (أنا أثق في نفسي) فقط صحح تفكيرك، ولا تخرج بنتيجة أن تجرّم كل من يقول ذلك، لكن عليك أن تصحح تفكيرك، افهم كيف تفكر؛ الثقة تكون برب العالمين، هي لرب العالمين وليست لأحد غيره.

٢. أن الثقة بالله مبنية على معرفة رب العالمين، ومعرفة نفسي والناس.

يعني أنت تقول: (أنا لا أثق إلا فيك) لأنك تقول: (أنا أعرف رب العالمين) ولأني أعرفه لا أضع الثقة إلا فيه.

فالثقة بالله مبنية على معرفة الله ومعرفة نفسي ومعرفة الناس، يعني أنت ستوحد الله بالثقة لأنك تعرف نفسك! كم مرة نمت وأنت عاقد العزم على أن تفعل هذا الفعل وتصحو في الصباح وقد فُكّت عزائمك؟!

وكم مرة تعقد العزم على عمل وحين تصل وتأتيك الأسباب تجد هذا الحماس ذهب؟!

كم مرة وعدت على أنك ستفعل ثم تجد نفسك غير مستجيبة لفعل هذا الشيء؟!

إذًا عرفت نفسك أنها ليست مكانًا للثقة، تتقلب كل حين وما كنت تحبه بالأمس تكرهه اليوم وما كنت متحمسًا له فترت عنه وما كنت نشيطًا له أصبحت كسولًا...هذه نفسك؛ ليست موطنًا للثقة. ونحن نتكلم عن الشيء

الطبيعي، لكن الشيء المتطرف أن أحب الناس اليوم وغدًا أكرههم واليوم أنا نشيطة وغدًا أصحو على الجهة الأخرى فهذا اضطراب! لكن نحن نتكلم عن الشيء الطبيعي؛ أن تكون في الليل عازمًا وتصبح في الصباح بطريقة أخرى، عرفت نفسك؟! اعرف الناس أيضًا، الناس يشبهونك؛ يكون بالأمس متحمسًا ويحمسك حتى تصعد إلى السماء ثم يقابلك في اليوم التالي ويقول: (أنا أرى أن تصرف النظر عن هذا الموضوع)! يحطمك! يقول: (لا عليك، أنا على يمينك) ثم لا تراه نهائيًا بعدها! فلو وضعت ثقتي في هؤلاء الناس ستكون النتيجة أني سأتحطم مباشرة. وأبقى رهينًا لأهوائهم؛ ولذلك نذكر بما قاله السلف:

"مَن عرف الناس استراح فلا يطرب لمدحهم ولا يجزع لذمهم، فإنهم سريعو الرضا سريعو السخط والهوى يحركهم"

كيف أثق بمَن هذا وضعه؟! لا يصح! ونقول للناس: (أيضًا نحن مثلكم) لا أحد يستطيع أن يقول: (أنا أثق في نفسي ولا أثق في الناس) لا نفسك ولا الناس! إنما الثقة في رب العالمين.

٣. أن الثقة بالله تولد العزيمة والراحة والرضا.

عندما تكون واثقًا في رب العالمين، حين تعزم على شيء تستخيره، ثم تقول: (أنا واثق أن ربنا سيسهل لي الخير) وتدعو رب العالمين وتقول له: (دلّني واهدني ما الذي يرضيك في هذا الشأن) وتبقى تسأل ربنا وتنكسر بين يديه. بهذا تكون عزيمتك على الأمر واضحة؛ لذا من دعائنا أن نسأل ربنا: "العزيمة على الرشد" لأننا نعرف أن عزائمنا تنفك إلا أن يعطينا الله القوة، فنلزم قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) ونقول لربنا: (أعطنا العزيمة على الرشد) ونستخيره ونستغيث به ونطلب منه أن يهدينا إلى الصراط المستقيم. فهذا مسلكنا مع رب العالمين، نضع ثقتنا برب العالمين. "واثق برب العالمين" بمعنى أن أستخيره

وأنا مطمئن أنه سيرشدني، أدعوه وأنا مطمئن أنه سيستجيب لي، وأستخير بصدق، فقد نستخير بطرف لساننا -خصوصًا الشابات- تستخير ثم تقول لربنا بعد الاستخارة: (اختره لي، واجعل الخير فيه)! لماذا تستخير ربنا؟! أنت تفوض أمرك لله في الاستخارة. يعني تقول: (يا رب أنت علام الغيب، أنت تعرف إن كان هذا الأمر فيه خيرًا أو ما فيه خير. إن كان خيرًا فيسر لي أسبابه وإن لم يكن خيرًا فاصرفه عني واصرفني عنه واشرح صدري)...إلى آخر ما نفهم من المعاني لا أن نشترط على رب العالمين! يعني تختار وتزعم أنك تستخير ربنا؟! هذا كله كذب على النفس، كذب على رب العالمين، كن صادقًا وأنت تدعو رب العالمين أن يدلك على ما يرضيه، مثلًا أنت الآن تريد أن تصل رحمك ورحمك لا يصلونك، وإذا وصلتهم قطعوك فبم تتصرف الآن؟ على نفسك وقراراتك يمكن أن تقول: (الحل مع هؤلاء أن أقطعهم) لكن حين تصدق وتثق في رب العالمين ستقول له: (دلّني على ما يرضيك، وأعطني العزيمة على فعله واشرح لي صدري، ما يرضيك لا ما يرضيني) فيجب أن يكون عند الإنسان صدق قوي حين يثق في رب العالمين.

الشاهد: أنك ستثق بالله ثقة فيها دعاء وانكسار وتوّلد هذه الثقة: العزيمة والراحة في قلبك، فتأخذ هذا الطريق وأنت صادق، لا على ما يناسب هواك، تأخذ هذا الطريق الذي استخرت الله على سيره في وترتاح، حينها، إذا نزلت عليك الأقدار ستصبح راضيًا بما قسم الله.

إذًا لترتاح نفسك، لا تعتمد على نفسك، ليس الاعتماد على النفس هو ما يوصلك إلى الراحة، إنما ما يوصل الإنسان إلى الراحة: أن يثق في رب العالمين، لكن لو تثق في نفسك وآرائك...! كم مرة اخترت وخاب اختيارك؟ كم مرة قررت وخاب قرارك؟ كم مرة تعجّلت!

ولا ننسى صفات الإنسان: (إنه عجول، وإنه جهول، وإنه كفور، وظلوم) فهو ليس محطًا للثقة، إنما تخرج نفسك من كل هذه الثقة، وتضعها عند باب الله عزَّ وجلَّ.

الناس الآن حين يستعملون كلمة: "الثقة في النفس" يقصدون أني أفكر جيدًا وآخذ قرارات، ولا يقصدون أني صاحب قرارات مطلقة وجيدة، لا يقصدون هذا المعنى بالضبط، إنما يقولون هذا الكلام جزافًا، ولو ناقشتهم: هل أنت تثق بنفسك ثقة تامة؟ هل أنت لا تدعو ربنا؟ هل أنت لا تستخير ربنا؟ سيقول: لا، بل أدعو ربنا وأسأل ربنا، وأستخير ربنا.

لكنهم يريدون بكلمة: "الثقة بالنفس" مصطلح أمام: (الشخصية الضعيفة، الشخصية المهتزة).

فبهذه الصورة دخلنا في مصطلح هو من جهة القصد ليس خطأ لكن من جهة استعماله هو خطأ. فنؤكد أننا لا نحرّم على الناس ونقول لهم: (ترتكبون ذنبًا إذا قلتم ذلك) لكن أنت فكر في المعنى وفهمهم أن النفس ليست أهلًا للثقة وأن الثقة في رب العالمين، يعني حين تريد أن تعبر عن قوة قرارك وقوة ما في نفسك عليك أن تقول: (أنا أثق في رب العالمين أنه لا يضيع مَن لجأ إليه ولا يضلّ مَن طلب منه الهداية) كيف تتصور أن تستهدي ربنا ويضلّك؟! هذا لا يكون أبدًا.

إذًا حين تريد أن تعبّر ستقول: (الثقة في رب العالمين) فحين تريد أن تصف نفسك أنك على المنهج الصحيح، قل: (وإنّي إنْ أثِقُ إلَّا برحمتِك) من النص، وتكون بذلك واثق في رب العالمين.

فبدلا من أن أقول: (أنا أثق في نفسي) سأقول: (أنا أثق في رب العالمين) هل عندنا نص يدل على ذلك؟ نقول: نعم، أنت تقول لرب العالمين: (لا تكلني إلى نفسي طرفة عين) إذًا كيف تقول: (لا تكلني إلى نفسي طرفة عين) وأنت تثق في نفسك؟! لا تصلحان معًا! أنت تقول لربنا: (لا حول ولا قوة إلا بالله) ها أنت تنزع الحول والقوة منك وتعطيها لرب العالمين، فهذه المعاني كلها مستقرة في نفوس المؤمنين، حتى وهم يقولون الكلمة الأخرى لكن الآن نستبدلها بلطف، نقول: (نحن نثق في رب العالمين) والنص فيه هذه الدلالة؛ قال: «وأشهَدُ أنَّك إنْ تَكِلْني إلى نفسي تَكِلْني إلى ضَيعةٍ وعَورةٍ وذَنبٍ وخطيئةٍ» بمعنى: إذا دبرت أنا نفسي؛ سأقع في ذنب أو أكشف لنفسي عورة أو أقع في خطيئة!! لكن أنت دبرني، أنا لا أثق إلا في رحمتك. اتفقنا على هذا المعنى.

ما معنى «أَلا أُخْبِرُكُمْ بأَهْلِ الجَنَّةِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ -صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ-: كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ»؟

المقصد أن هذا يكون إنسان غير مستكبر. ونقرأ في سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[1] أنت حين يعتدي عليك سفيه ويصرخ وتسير وتتركه، هو والناس يفهمون أنك ضعيف؛ لأن عندهم قانون: (إن القوي الذي يرد والأقوى هو من ابتدأ بالشر ليعرف الناس مكانه وقدره، وإذا سكت لهم يزيد حالهم) هذه المفاهيم التي عند الناس هي ما تقول الشريعة إنها خطأ!! أنت لكثرة تواضعك ستسير على الأرض هونًا، ستعرف حق كل شيء، حتى الأرض لا تؤذيها، لا تسير على الأرض مشية المتكبر، والناس في كلامهم أنهم يسيرون على الرض

(١) الفرقان: ٦٣.

متعاظمين، وانظر لنفسك، حين تكون بملابس الخدمة في البيت؛ تسير على الأرض مؤدب.

وحين تلبس ملابس الخروج والخواتم والذهب...تصبح كأنك تسير على مخدة هوائية!! ما حصل في مشاعرك هو الممنوع في الشرع؛ لأنك نفس الإنسان بأي من الملابس!

فالقرآن يقول لنا: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أنت متواضع حتى الأرض. والمسألة الثانية: إذا مررت بأهل اللغو، بالجاهلين، تقول: (سلام) هم يفهمون أنك ضعيف، وأنت تفهم أنك تريد أن تكرم نفسك من أن يقع من لسانك كلمة تعرف أنك ستحاسب عنها؛ لذلك النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قال:

«ليسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ.»[1]

(ليسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ) ليس الشديد الذي له شدة وإذا دخل في شجار يفعل ويفعل، النبي -صلّى الله عليه وسلّم- صحح لنا التفكير، ليس هذا هو الشديد، الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.

فالذي يملك نفسه عند الغضب، يعتقد الثاني أنه ضعيف! والحقيقة: أنه يتسامى عن ذلك.

واعلم أن الشريعة حفظت لك حقوقك وأمرتك أن تأخذ حقوقك لكن كله بالطرق الشرعية. ولتستوعب المسألة افهم هذا جيدًا:

- أنك لتكون من أهل الجنة تحتاج أن تكون متواضعًا منكسرًا.

والانكسار والتواضع لا يعنيان أنك تصبح ضعيفًا في نفسك ومترددًا ومنقطعًا، وطوال الوقت لا تستطيع أن تأخذ قرار! بل الضعف هنا قد يظهر

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤).

على الإنسان من شدة تواضعه لكن هو في نفسه قوي بالإيمان، قوي برب العالمين، قوي بالثقة بالله عزَّ وجلَّ، وكلّما ضعف في موطن؛ تمسك بحبل الله فنجّاه الله، وكلّما أحد أشعره أنه في حالة من الضعف هو تمسّط بحبل الله فرد عليه الله كرامته ورفعه؛ ولذا لا ننسى أن الله وصف المؤمنين بعضهم لبعض أنهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لا أنهم يستعرضنا قواهم على المؤمنين، وحين يكون الأمر بينه وبين أهل الكفر في الصفين يكون: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فليست المسألة بالعكس! على الكافر هو في غاية الذل وعلى المؤمن هو في غاية العزة! ليس هذا هو المقصود، ولذلك هؤلاء هم أهل الجنة: (كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ) فنفهم من هذا أن المقصود أنه يكون في حالة من الانكسار والذل لرب العالمين، فيعطي المسلمين حقهم ولا يتعدى عليهم، وفي التاريخ الإسلامي من المواقف والأحداث ما يبين لنا مَن هؤلاء المؤمنين. تبين لنا هذا الحديث سنصل إلى الحديث الأخير:

قال الإمام ابن رجب -رحمه الله- في رسالته: (غَايَة اَلنَّفْعِ فِي شَرْحِ حَدِيثِ تَمْثِيلِ اَلْمُؤَمَّنِ بِخَامَةِ اَلزَّرْعِ):

وخرجاه في (الصحيحين) عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ وَقَالَتِ النَّارُ: مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا المُتَجَبِّرِينَ وَالْمُتَكَبِّرونَ ...»[1] الحديث.

إذًا: أمام (الضعفاء) هناك: (الجبار المتكبر) معنى ذلك أن الضعيف هو الذي ليس جبارًا ولا متكبرًا، أي أن الناس ينقسمون إلى قسمين:

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

←جبار ومتكبر.

←ويقابله الضعيف.

والضعيف هو الذي ليس بجبار ولا متكبر، ولا يوجد أحد يريد أن يكون جبارًا ومتكبرًا!

إذًا المعنى المقصود بالضعف هنا: الذي هو ضد الجبروت والكبرياء. يعني أنت ضعيف ليّن القلب، إذا استعطفك أحد عطفت عليه، إذا جاء أحد يقول لك: (أنا أمر بأزمة) لا تجد قلبك قاسيًا فلا تتأثر بشيء، بل فيك من هذا اللين الذي في القلب أنك تتأثر بمن حولك والأحداث تؤثر فيك.

أما المتكبر المتجبر فليس في مشاعره إلا الوصول إلى رغباته، سيأتي بيان هذا أكثر في الكلام الذي سنقرؤه بعد ذلك...

قال:

وقد ورد في القرآن تشبيه المنافقين بالخُشُبِ المسنّدَة مع حسن منظرهم، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾[1].

فوصفهم:

١- بحسن الأجسام وتمامها.

٢- وحسن المقال (وفصاحته)، حتى يعجب من منظرهم مَن رآهم، ويسمع قولهم مَن سمعه سماع إصغاء وإعجاب به.

(١) المنافقون: ٤.

٣- ومع هذا فبواطنهم خراب ومعانيهم فارغة، فلهذا مثّلهم بالخُشُب المسنّدة، التي لا روح لها ولا إحساس.

وقلوبهم مع هذا ضعيفة في غاية الضعف: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنهم لما أضمروا خلاف ما أظهروا خافوا الاطلاع عليهم، فكلما سمعوا صيحة ظنوا أنها عليهم، وهكذا كل مريب يُظهر خلاف ما يضمر يخاف من أدنى شيء ويحسبه عليه.

هذا البيان لنعود مرة أخرى نرى كيف يشبه المنافق والفاجر كالأرزة (الشجر العظام) نتصور الشجر العظام أن خشبها قوي، والمؤمن كخامة الزرع، وننظر لوصف المنافقين في القرآن في سورة المنافقين:

وقد ورد في القرآن تشبيه المنافقين بالخشب المسندة مع حسن منظرهم، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

الخشب يشبه الأرزة، الأرزة (ساقها كله خشب قوي لا تحركه الريح يمنة ولا يسرة) المنافق نفاقًا أكبرًا يشبه الخُشب المسنّدة، الأرزة: خشبة واقفة، لكن الآيات في سورة المنافقين ستزيدنا وصفًا لهم؛ مع حسن منظرهم، منظرهم حسن لكن ربنا شبههم بالخُشب المسنّدة؛ لذا قال الله -عزّ وجلّ- ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ أناس معتنون بأجسامهم، تصور الشجرة الطويلة؛ الخشب فيها قوي وثابت يُعجب الرائي.

﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ خُشُب (جمع خشبة) مسنّدة ليست قائمة بنفسها بل مستندة مثلًا على الجدار.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى ضعف قلوبهم، يعني أبدان قوية وقلوب ضعيفة!

(فوصفهم

١- بحسن الأجسام وتمامها.)

٢- (وحسن المقال (وفصاحته)، حتى يعجب من منظرهم من رآهم، ويسمع قولهم من سمعه سماع إصغاء وإعجاب به.)

٣- (ومع هذا فبواطنهم خراب ومعانيهم فارغة -شكلة جميل لكن من الداخل قلبه فارغ- فلهذا مثّلهم بالخُشُب المسنّدة، التي لا روح لها ولا إحساس)

صحيح أن لسانه فصيح وبدنه جميل، لكن تشعر أن هناك شيء غير طبيعي، كأن روح ناقصة، لا يوجد صدق، تشعر كأنه يمثل دورًا، ودائمًا يريد أن يكون بالصورة الحسنة والكاملة في كل شيء، ولا يوجد صدق، وهذه معانٍ لا يفهمها إلا أهل الإيمان، التمثيل الذي يمثله أهل النفاق، والحالة التي يصورون فيها أنفسهم أنه على أحسن حال وأنهم مثاليون وأنه لا يوجد مثلهم! يشعر أهل الإيمان أنهم في حالة من الغثيان، يشعرونك أنهم في حالة من الكمال لكنهم مثل الخُشب المسنّدة لا روح فيها.

(وقلوبهم مع هذا ضعيفة في غاية الضعف) وليغطوا هذا الضعف يتكبروا ويتجبروا، وأول ما تكون عندهم سُلطة يبطشوا ويكثروا الكلام وتسمع منهم انتقادات! وهذا كله ليغطوا على الضعف الذي في نفوسهم، ألسنتهم حادة وكلامهم كثير لكن هذا كله ليغطوا الضعف الذي في داخل نفوسهم؛ لذلك ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا شيء طبيعي (لأنهم لما أضمروا خلاف ما

أظهروا خافوا الاطلاع عليهم، فكلما سمعوا صيحة ظنوا أنها عليهم، وهكذا كل مريب -كل إنسان في حالة من الريب يتلفت، أول ما يسمع صوت يتلفت- يظهر خلاف ما يضمر يخاف من أدنى شيء ويحسبه عليه.)

فهمنا أن قوة المنافقين ظاهرية فقط، تكبّر وتجبّر وصوت عالٍ ولسان طويل وانتقادات، ولو وقع تحت أيديهم الضعيف فرموه، لو وجدوا شخصًا ضعيفًا يتسلطوا عليه، ولو تسلطوا على أحد فعلوا به الأفاعيل! لكن قلوبهم من الداخل ضعيفة بسبب أنهم يمثلون أدوار أنهم في حالة جيدة وأن مظهرهم جيد وكلامهم جيد وينكشفون مباشرة للمؤمنين، وسنرى في مقابل ذلك أهل الإيمان ما وصفهم، قال:

وأما المؤمن فبعكس هذه الصفات، غالبهم مستضعفون في ظاهر أجسامهم ولباسهم وكلامهم؛ لأنهم اشتغلوا بعمارة قلوبهم وأرواحهم عن عمارة أجسادهم. فقلوبهم ثابتة قوية عامرة، فيكابدون بها الأعمال الشاقة في طاعة الله من الجهاد والعبادات والعلوم وغيرها مما لا يستطيع المنافق مكابدته لضعف قلبه.

ولا يخافون من ظهور ما في قلوبهم إلا خشية الفتنة عَلَى نفوسهم، فإن بواطنهم خير من ظواهرهم، وسرّهم أصلح من علانيتهم.

قوله: (وأما المؤمن فبعكس هذه الصفات، غالبهم مستضعفون في ظاهر أجسامهم ولباسهم وكلامهم) الآن يناقش الضعف الحاصل عند المؤمن، المؤمن في الحديث هو مثل خامة الزرع، وفي الأحاديث الأخيرة «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ -صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ- : كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ» هذا الضعف أين تجده في المؤمن (غالبهم مستضعفون في ظاهر أجسامهم ولباسهم وكلامهم) وهنا يجب أن نعرف دائمًا أن التوازن مطلوب، لا يقصد

هنا أنهم ليسوا نظيفين أو ليسوا مهتمين بالأوامر الشرعية في المسائل التي تتصل بأبدانهم، لا، لكن قارن بين المؤمنين والمنافقين الذين يهجمون على كل ما يأتي بالتزيين وكل ما يزيدهم رونقًا ظاهريًا يهتمون به، أما المؤمن فيكفيه في النظافة أنه في خمسة فروض يقوم بما يجب عليه، فمثل هذا لا نفهمه فهمًا خاطئًا، دائمًا نضع قاعدة التوازن في كل الكلام الذي نسمعه، فهو في الظاهر لا يجري وراء الموضات وكلما خرج شيء عرفه وجربه على نفسه! هذا يهتم بنفسه اهتمامًا يجعله على ما يرضي الله، على سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لماذا؟ وقتهم أين يذهب؟ قال:

(لأنهم اشتغلوا بعمارة قلوبهم وأرواحهم عن عمارة أجسادهم) هم لم يحرموا من الطعام والشراب، لكن تصور أن من يجري وراء أشياء الدنيا يجب أن يكون قلبه مشغولًا بهذه.

ومن يريد الآخرة سيأخذ من الدنيا أخذة المتبلّغ.

وهنا نضرب مثلًا واضحًا لتتصوروا المعنى جيدًا:

مثلًا لو كان هناك طالب دراسات عليا وسيحصل على درجة علمية ومناقشته في الأسبوع القادم. هذا سيأكل ويشرب وينام، لن يحرم نفسه من الطعام والنوم، لكنه لا يفكر بنوع الطعام والشراب ولا بالزي الذي سيلبسه، هذا سيأكل ويشرب طبيعي، لكنه لن يضع له خيارات ويقول: (نأكل هذا للغذاء وهذا للعشاء)! بل يسير في طريقه ويأكل ليقوي بدنه ويلبس ليستر نفسه. والناس من حوله يحمدونه، يقولون له: (الله يوفقك وييسر لك وكله وقت قصير) كل هذا من أجل الدرجة التي سيحصل عليها، ماذا عن درجات الجنة، ألا تستحق منا هذا الإقبال!؟ تستحق وأكثر.

فأنتم تصوروا المسألة بهذه الصورة، حين يقال لك: (لأنهم اشتغلوا بعمارة قلوبهم وأرواحهم عن عمارة أجسادهم.)

المقصد أنهم يأكل ما يقيم البدن ويلبسون ما يسترهم لكنه ليس شغلهم الشاغل؛ لأن هناك درجة يريدون الحصول عليها.

وأهل الدنيا حين يفكرون في دنياهم يفعلون ذلك أيضًا.

نفهم هذا جيدًا لئلا يحصل تطرف فكري، ونؤكد على هذا لأن الشيطان أول ما تأتي هذه الأخبار يقول لك: (هل هذا يعني ألا نعيش ولا نأكل؟) لا، كل وعِش لكن على الحد الذي لا يشغلك، لا تكون هذه الأمور التي تشغلك، هذه أمور خارجية ومن الداخل هناك شيء واضح يشغلك. قال:

(فقلوبهم ثابتة قوية عامرة، فيكابدون بها الأعمال الشاقة) قارن الآن بين المؤمن والمنافق:

تجد المؤمن يجتهد في الأعمال -خصوصًا الصعبة- يكون صعب عليه حفظ القرآن فيعيد ويعيد.

ويأتي المنافق الذي يشبهه في صعوبة حفظ القرآن يقول: (لا يستحق، لا حاجة لنا في ذلك، لا تشق على نفسك) لا يريد منه أن يحفظ فيقول له: (لا يحتاج الأمر أن تشق على نفسك)! لا، المؤمن يرى أن القوة في القلب أن تعزم على فعل الشيء الذي يحبه الله ويرضاه.

يقول المنافق لك: (كم عمرك؟ أنت عمرك متقدم، لماذا تحفظ القرآن الآن؟)! ألن نذهب إلى قبرنا ونحتاج القرآن معنا؟ يقول لك: (بعد الخمسين حين تحفظ ماذا ستكون؟ شيخًا؟ يختبرونك لتكون مدرسًا؟)! يفكر أن

القضية في الدنيا، والإنسان يحفظ القرآن ويبذل جهده في حفظه لأنه يدخل القبر معه، القرآن هو نور القبر، فهو يفكر في هذا.

الثاني لا يريد أن يتعب قلبه ويحفظ القرآن فيحاول بقدر المستطاع أن يبعد هذه المسألة.

أما المؤمن يكابد، قلبه قوي يقوم الليل ويكابد خاصة في الأعمال السرية هناك قوة، أما ذاك فضعيف، حتى التسبيح بعد الصلاة لا يكابد أن يكمله، لو مرّ أحد من أمامه كلّمه؛ ترك التسبيح! كلما قُطع انقطع ولا يكابد، لكن المؤمن قوي الإيمان يكابد الأعمال الشاقة (في طاعة الله من الجهاد والعبادات والعلوم وغيرها مما لا يستطيع المنافق مكابدته) لماذا لا يستطيع المنافق المكابدة؟ (لضعف قلبه) لكن لو قالوا له: (سنقيم حفل كبير للحافظ ونعمل تغطية إعلامية) سيجري، ويعمل ما يقدر عليه من أجل المظاهر؛ لأنه دائمًا يحب التلميع فيصبح يلمع أمام الناس، سيحفظ لو كان حفظه سيجعله شيخًا على الناس، ويصبح كلامه ساريًا عليهم! فيصبح يفكر في الأفعال التي تفيده هنا وهذا كله لضعف قلبه، وهناك صفة للمؤمن:

(ولا يخافون من ظهور ما في قلوبهم إلا خشية الفتنة عَلَى نفوسهم) هؤلاء في قلبهم الإيمان وحب الله، فهم ليسوا مثل أهل النفاق يخافون أن يظهر ما في قلوبهم، لا يخافون أن يظهر ما في قلوبهم؛ لأن ما في قلوبهم خير وبركة لكنهم يخافون فقط لئلا يفتنون، لئلا يقول لهم الناس: (ما شاء الله على إيمانكم وتقواكم) لذلك على قدر المستطاع يبذلون جهودهم أن يكونوا أخفياء ليس خوفًا مما في قلوبهم لكن خوفًا من الفتنة على نفوسهم.

(فإن بواطنهم خير من ظواهرهم، وسرهم أصلح من علانيتهم) وهذا أمر معروف، واقرأ في سيرة الصحابة الكرام ومَن تبعهم، فهؤلاء سرّهم خير من

علانيتهم، لما مات سبط الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- الحسن فقدت بيوت كثيرة في المدينة المؤونة، لم يكونوا يدرون أن الحسن هو الذي فعل! حتى أنهم لما غسلوا جسده وجدوا آثار الحبل الذي كان يحمل به المؤونة على ظهره في الليل! فهؤلاء بواطنهم خير من ظواهرهم؛ لذلك هم أتقياء خاصة في السر، هم أتقياء في السر والعلانية، لكنهم أكثر تقوى في سرهم والسبب: قوة قلوبهم وبعدهم عن الأضواء والإعلام ومعرفة الناس، لا يقولون: (انظروا علينا تبرعنا، اعتمرنا) ويرفعون أيديهم ويدعون تمثيلًا ليصورهم الآخرون! هذا في الدين اسمه: (الرياء) وهو الشرك الأصغر. والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- قال: «أخوفُ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ، فسُئِلَ عنه فقال : الرياءُ»[1]

فالرياء هذا أشهر نموذج للشرك الأصغر، معنى ذلك أن الرياء يتسرب إلى الإنسان حتى يضعف قلبه إلى أن يخرج الإنسان من وصف الإيمان إلى وصف الرياء، الله يعيذنا! قال:

قال سليمان التيمي: أتاني آت في منامي فَقَالَ: يا سليمان إِنَّ قوة المؤمن في قلبه.

القوة في القلب بسبب قوة الإيمان فتأتي قوة العزائم؛ ولذلك في الحرمين وفي المساجد في أيام رمضان يصر الشيخ الكبير أن يصلي واقفًا على قدميه، والصغار...! فهذا كله إشارة إلى أن الضعف ليس في البدن، بل الضعف في القلب؛ لأن القلب إذا كان قويًا؛ صام النهار وقام الليل وقرأ القرآن واحتسب على الله، لكن حين يضعف القلب، كلما ناده الشيطان جرى معه، يقول: (أنا تعبان وأنا مصدع...) الشاهد أن قوة المؤمن في قلبه.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٦٨٠).

فالمؤمن لما اشتغل بعمارة قلبه عن عمارة قالبه استُضعِف ظاهرُه، وربما ازدري، ولو علم الناس ما في قلبه لما فعلوا ذلك.

قال علي لأصحابه: كونوا في الناس كالنحل في الطير، كل الطير يستضعفها، ولو علموا ما في جوفها ما فعلوا.

هذا قول عليٌ -رضي الله عنه- فيه من الحُسن ما فيه؛ شبّه المؤمن بالنحل، النحل في الطير صغير بالنسبة للطيور، والنسور والصقور، بالنسبة لها لا شيء، لكن ماذا يحمل هو ماذا يحملون هم؟ كل الطير يستضعفه ولو عرفوا ما في بطنه -العسل- لاحترموه لأنه مع صغر حجمه لكنه وضع فيه خير الدواء وخير ما أنزل الله من شفاء! بهذا تكون المسألة ليست بالظاهر؛ ليست بالطول والعرض والصوت والقوة، إنما بما في الجوف، بما في القلب، من قوة إيمان ويقين وثبات وعزيمة. هذا كله يقوي البدن بعد ذلك، لا تجميل البدن وإصلاحه هو ما سيأتي بالنتيجة؛ لذلك تجد الرجل طويل القامة قوي وقد يلعب ألعاب قوى وتقول له: (قم الليل) لا تجد عنده العزيمة على ذلك. فليست بقوة البدن، بل المطلوب أن يكون القلب صحيحًا. قال:

ومن قوة قلب المؤمن وثباته أنه ثابت عَلَى الإيمان، فالإيمان الَّذِي في قلبه مثله كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فيعيش عَلَى الإيمان ويموت عليه ويبعث عليه.

وإنما الرياح وهي بلايا الدُّنْيَا تقلب جسمه يمنة ويسرة، وكذلك قلبه لا تصل إِليه الرياح؛ لأنّه محروس بنور الإيمان.

هذه نقطة مهمة جدًا نبدؤها اليوم وغدًا نكملها، كلام مهم جدًا مقابل ما ابتدأناه:

في البداية قلنا إن المؤمن كخامة الزرع، تأتي الرياح تكفأه يمنة ويسره، هنا يشير إلى أن المؤمن ثابت كالشجرة الطيبة.

هل هو ثابت أو كخامة الزرع؟

نبيّن اليوم باختصار وغدًا نعيد بالتفصيل:

(ومن قوة قلب المؤمن وثباته أنه ثابت عَلَى الإيمان فالإيمان الَّذِي في قلبه مثله كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء)

كأننا ننظر له من جهتين، كلا الجهتين سنشبهها بالشجرة:

←عندما نتكلم عن الإيمان الذي في قلبه نقول: (هو مثل النخلة، أصلها ثابت وفرعها في أسماء وتؤتي أكلها كل حين).

←حين نتكلم عن القوة التي في بدنه نقول: (وإنما الرياح وهي بلايا الدُّنْيَا تقلب جسمه يمنة ويسرة).

معناها في الحالتين: قلبه والإيمان الذي فيه مُثّل بالشجرة.

وبدنه والضعف الذي فيه أيضًا مُثّل بالشجرة.

لكن في الحالة الأولى: القلب مُثّل بالشجرة الثابت التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وفي الحالة الثانية: بدنه مُثّل بخامة الزرع التي تأتي الرياح تكفأها يمنة ويسرة.

فهناك فرق بين قلبه وثباته وبين بدنه وثباته، تأتي البلايا على بدنه ولا تصل أبدًا إلى إيمانه، إنما إيمانه ثابت؛ لذلك يمر المؤمن بالمواقف والأزمات، تأتيه

الريح على البدن فيزداد إيمانًا، تكون ذاهب لتعزيته أو تذهب لتهون عليه الأمر تجده هو أقوى منك أنت؛ لأن البدن يدخل في الأزمات فيقوى القلب زيادة.

(وكذلك قلبه لا تصل إِليه الرياح؛ لأنّه محروس بنور الإيمان.) نستفتح هذا المعنى غدًا ونرى المنافق في مقابله.

جزاكم الله خيرًا

السلام عليكم ورحمة الله

اللقاء الخامس

(٤) شرح رسالة غاية النفع

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله توكلنا على الله، اليوم هو لقاؤنا الأخير لشرح هذا الحديث العظيم وهو: (تَمْثِيلِ اَلْمُؤَمَّنِ بِخَامَةِ اَلزَّرْعِ)

وقد فهمنا ما معنى تمثيل المؤمن بخامة الزرع، ووصلنا إلى نقطة في غاية الأهمية وهي: أن المؤمن قلبه وبدنه مختلفان في التشبيه، بمعنى:

←البدن قد شبّه بخامة الزرع.

←أما القلب فشبّه بالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وهناك فرق بين التشبيهين. التشبيه الثاني للقلب ورد في سورة إبراهيم قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

المقصد بذلك أن قلب المؤمن في داخله عقيدة ثابتة، ثم إن هذه العقيدة الثابتة تصدر منها أعمال صالحة ترتفع إلى السماء، ثم إن هذه الأعمال الصالحة يحصل قبول الله لها فتكون ثمرتها دائمة.

فصارت هذه الشجرة فيها ثلاثة أمور:

١. أصلها ثابت.

٢. وفرعها في السماء.

٣. وتؤتي أُكلها كل حين.

والمؤمن قلبه الإيمان ثابت فيه ثم أن هذا القلب تصدر منه أعمال جارحية وأعمال قلبية ترتفع إلى السماء، ثم تأتيه الأجور الدائمة، الحسنة تقول: (أختي أختي) يأتيه الثواب من عند رب العالمين.

فهذا هو المثل المضروب لقلب المؤمن وعقيدته أنه: ثابت غاية الثبات.

في مقابل أن بدنه وأحواله التي تتصل بالبدن مثل خامة الزرع الريح تكفأها يعني: تذهب بها يمنة ويسرة.

إذًا الريح تكفأ البدن، لكن الشجرة الثابتة إنما هي مثال لما في القلب من عقيدة

وهذا كلام مهم جدًا، لا بد أن يكون تركيزنا على هذا الشأن، إذا كان بدن الإنسان تكفأه الرياح فيها، إلا أن قلب المؤمن ليس هذا حاله، بل الإيمان ثابت في قلب المؤمن. (وكذلك قلبه لا تصل إليه الرياح؛ لأنّه محروس بنور الإيمان.)

قال الإمام ابن رجب -رحمه الله- في رسالته: (غَايَة اَلنَّفْعِ فِي شَرْحِ حَدِيثِ تَمْثِيلِ اَلْمُؤَمَّنِ بِخَامَةِ اَلزَّرْعِ):

والكافر والمنافق بعكس ذلك، قوي جسمه، لا تقلبه رياح الدُّنْيَا، وأما قلبه فإنه ضعيف، تلاعب به الأهواء المضلة، فتقلبه يمنة ويسرة، فكذلك كان مثل قلبه كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، كشجر الحنظل ونحوه مما ليس له أصل ثابت في الأرض.

(والكافر والمنافق بعكس ذلك) أمام وصف المؤمنين أنهم شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وصف الكافر والمنافق بأنهم مثل الشجرة أيضًا لكنها اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. مثل شجرة الحنظل، هذه شجرة لها صفتان:

الصفة الأولى: تُزرع في السطح، يعني في تربة سطحية. جذورها لا تدخل إلى الأعماق في مقابل أن الشجرة الطيبة هي: النخلة كما في حديث ابن عمر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال عنه: «إنَّ من الشجرةِ شجرةٌ لا يسقطُ ورقها وهي مثلُ المؤمنِ قال عبدُ اللهِ: (فوقعَ الناسُ في شجرِ البوادي ووقع في نفسي أنها النخلةُ) فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: هي النخلةُ»[1]

فالنخلة في مقابل شجرة الحنظل، الفارق الرئيسي في: جذرها فإن النخلة تمد جذورها تحت الأرض إلى حوالي خمسة عشر مترًا، يعني عمارة بثلاثة طوابق، تمد جذورها إلى داخل الأرض بحيث أنها تأتي بخيرات الأرض.

في مقابل أن شجرة الحنظل سطحية في التربة، فلا تستطيع قلع النخلة أبدًا، في العادة لا يقلعون النخلة إنما إذا أرادوا التخلص منها؛ يقصونها ويبقى جذرها موجود في الداخل.

أما شجرة الحنظل لو دفعتها بقدمك خرجت من جذورها! اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وهذا حال الكافر والمنافق. (قوي جسمه، لا تقلبه رياح الدُّنْيَا) كأننا نقول: (المؤمن له مثال في قلبه بالشجرة وله مثال في بدنه بالشجرة)

---

(١) أخرجه البخاري (٦١).

ما هو مثل المؤمن في قلبه؟ مُثّل بالشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ما هو مثل المؤمن في بدنه؟ وفي بدنه أيضًا مُثّل بالنبات، كخامة الزرع.

الآن ما هو مثل الكافر والمنافق؟ مُثّل قلبهم بالشجرة كما في سورة إبراهيم: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1] هذا وصف لقلوبهم.

وأبدانهم مثل شجرة الأرزة كما في الحديث.

في بدنه لا تقلّبه رياح الدنيا؛ لأنه مثل شجرة الأرز، وهي (الصنوبر أو ما شابهها) يعني قطعة واحدة ولها سيقان قوية، فحين تأتي الريح لا تدفعها في مقابل أن قلبه ضعيف مثل شجرة الحنظل!

(وأما قلبه فإنه ضعيف، تلاعب به الأهواء المضلة، فتقلبه يمنة ويسرة، فكذلك كان مثل قلبه كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، كشجر الحنظل ونحوه مما ليس له أصل ثابت في الأرض)

إذًا المؤمن ضُرب له مثل بالشجرة في قلبه وبدنه، والكافر والمنافق أيضًا ضرب لهما مثل بالشجرة في قلبهم وبدنهم، يجب أن نذكر كلا المثالين لنرى الفرق، فالمؤمن قوي في قلبه وإن كان يمكن أن يكون ضعيفًا في بدنه.

قال:

وقال علي في صفة الهمج: الرعاع أتباع كل ناعق.

هؤلاء المنافقون لأنهم ليست لديهم عقيدة ثابتة فحين تأتي الفتن لا يستطيعون تمييز الحق من الباطل مثل المؤمنين، لكنهم مثل الهمج الرعاع،

---

(١) إبراهيم: ٢٦.

لو قيل لهم: (عليكم أن تستشفوا بالطاقة. قالوا: بالطاقة، أو قيل لهم: تستشفون بكذا وكذا من الخرافات؛ أخذوا بها)! بما يكون يستشفون، بمعنى أنهم يتبعون كل ناعق.

(يميلون مع كل ريح) هذه قلوبهم في مقابل أن أبدانهم خلاف ذلك.

(لم يستضيئوا بنور العِلْم، ولم يلجئوا منه إِلَى ركن وثيق) لكن المؤمن قوي الإيمان يعرف الحق من الباطل، حتى لو اختلط عليه الأمر لا يتهور في دخول أي شيء، يخاف على عقيدته وإيمانه، يخشى أنه لو دخل شيئًا يفسد عليه إيمانه، في مقابل أن هؤلاء المنافقين: همج رعاع أتباع كل ناعق، لذلك نجدهم كلما استورد الناس فكرة قبلها كثير من الناس، سواء وافقت عقيدتهم أو لم توافقها، هؤلاء هم ضعيفي الإيمان الذين لم تثبت في قلوبهم العقيدة. قال:

وبهذا يظهر الجمع بين حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع والفاجر بشجرة الأرز، وبين حديث تمثيل المؤمن بالنخلة. فإن التمثيل بالزرع لجسده؛ لتوالي البلاء عليه.

والتمثيل بالنخلة إيمانه وعمله وقوله، يدل عليه قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ فجعلها مثلًا بكلمة الشهادة التي هي أصل الإسلام، وثبوتها في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الأرض، وارتفاع عمل المؤمن إِلَى السماء كارتفاع النخلة، وتجدد عمل المؤمن من كل حين كإتيان النخلة أُكُلها كل حين. -هذا الكلام سبق أن بيّناه، أن المؤمن في قلبه مثل الشجرة التي أصلها ثابت، وفي بدنه كخامة الزرع، هذا واضح-

وقد روي عن أبي هريرة "أن المؤمن الضعيف مثل الزرع، والقوي مثله كمثل النخلة".

وخرجه البزار وغيره مرفوعًا، ولا يصح رفعه، إِنَّمَا هو موقوف، قاله الدارقطني وغيره.

هذا جمع آخر بين حديثين:

إن النبي قال: «إنَّ من الشجرةِ شجرةٌ لا يسقطُ ورقها وهي مثلُ المؤمنِ» وكان هذا الشجر هو النخلة الثابتة.

وإن النبي قال: «مَثلُ المُؤْمِنِ كَمَثلِ الخامَةِ مِنَ الزَّرعِ مِنْ حَيثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفأَتْهَا»

هذه الرواية عن أبي هريرة تجمع بين الحديثين، فإن المؤمن الضعيف مثل الزرع، بعض المؤمنين يكون عندهم ضعف في نفوسهم، ألم نسمع قول النبي: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضعيفِ وفي كلٍ خيرٌ»[1]

المقصد المؤمن ضعيف الإيمان والمؤمن قوي الإيمان، فمعناه: يمكن أن يكون المؤمن الضعيف مثل الزرع والقوي في إيمانه مثل النخلة.

أو المؤمن الضعيف في بدنه مثل الزرع، والمؤمن القوي في قلبه مثل النخلة. لكن الأقرب -والله أعلم- أن القوة والضعف هنا للإيمان.

بهذا نكون انتهينا من الفائدة الأولى ثم نبتدئ بالفائدة الثانية من الحديث:

ومنها أن ثمرة الزرع -وهو السنبل- يُستضعَف ويطمع فيه كل أحد لقرب تناوله؛ فيطمع الآدمي في الأكل منه وفي قطعه وسرقته، والبهائم في رعيه، والطير في الأكل منه، وكذلك المؤمن يُستضعَف؛ فيعاديه عموم الناس؛ لأن الإسلام بدأ غريبًا ويعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء.

فعموم الخلق يستضعفه ويستغربه، ويؤذيه لغربته بينهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

وأما الكافر أو المنافق أو الفاجر الَّذِي كالصنوبرة، فإنه لا يُطمع فيه، فلا الرياح تُزعزع بدنه، ولا يُطمع في تناول ثمرته لامتناعها.

هنا فائدة أخرى، في تمثيل الحديث أن المؤمن كخامة الزرع والمنافق كالأرزة، وخامة الزرع -الزرع اللين- من أمثاله الزرع الذي يخرج منه سنابل، الذي ضُرب له مثل في القرآن أيضًا، هذا الزرع الذي له ثمرة -السنبل- يُستضعف ويطمع فيه كل أحد، الزرع بنفسه ليّن وثمرته تكون مائلة في متناول اليد، فالناس حين يرونها في متناول اليد يطمعون فيها لقرب تناولها.

اترك الآن الزرعة وفكر في المؤمن؛ معناه أنه من الممكن أن يحصل على المؤمن من الإيذاء لأنه في متناول اليد؛ هين لين وقريب من الناس فالنتيجة أنه من الممكن أن يحصل اعتداء عليه كما يحصل على السنبلة. ماذا يحصل على السنبلة من اعتداء؟ قال: (ومنها أن ثمرة الزرع -وهو السنبل- يُستضعف ويطمع فيه كل أحد لقرب تناوله فيطمع الآدمي في الأكل منه -من السنبلة- وفي قطعه وسرقته -لأنه قريب وهين ولين أن يؤخذ منه- والبهائم في رعيه، والطير في الأكل منه، وكذلك المؤمن يستضعف؛ -لأنه هين- فيعاديه عموم الناس -خصوصًا أننا نعرف أن الشيطان يحرّش بين الناس، ويحرّش على المؤمنين خاصة- لأن الإسلام بدأ غريبًا ويعود غريبًا كما بدأ) فهو الآن المختلف عن الكثير من الناس فالناس يعادونه، وعموم الناس يستضعفونه ويستغربونه ويؤذونه لغربته بينهم، هذا الكلام بعيد تمامًا عنا لأننا لسنا في زمن غربة الإسلام فلا يمر هذا على خاطرنا، نحن في زمن الحمد لله فيه الإسلام عزيز، ومن شهادة أنه عزيز: أننا نجلس في هذا المجلس في أمن وأمان وراحة بال ونخرج من بيوتنا في أحسن حال، ونرجع -إن شاء الله- طيبي النفوس. والمآذن يعلو عليها صوت الآذان -الحمد لله- المساجد مليئة والجُمَع

تجمع المسلمين، هذا ليس وقت الغربة أبدًا، نعم هناك فتن، والفتن لا يخلو منها زمان، صحيح أن كل زمان يأتي تكون الفتنة أشد من الزمن الذي سبقه لكن هذا ليس زمن الغربة، لنتصور الغربة نتصور مبدأ الإسلام، كان الصحابة يعدون عدًا، حتى أن أحدهم يقول: (كنت رابع من أسلم وما في الأرض إلا أنا والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- وفلان وفلان مسلمين) هذه هي الغربة التي يُعد فيها أعداد المسلمين، لكن الحمد لله أعداد المسلمين اليوم كثيرة، وإن كان الضعف موجود، هناك قوي الإيمان وهناك ضعيف الإيمان، وكل زمان فيه من الفتن ما فيه، ما وصلنا إلى هذا الحد أن الناس يجتمعون على عداوة المؤمن في كل جهات الأرض، لكن هذا قد يكون في جهات معنية، يكون هذا المؤمن في جهة من الأرض هو مُستضعف هو وحده والناس حوله غير مستضعفين فيستغربونه ويؤذونه ويتعدون عليه، لكن الغربة ليست عامة أبدًا.

ونعيد أننا في زمن كثرت فيه الفتن، صحيح لكن في مقابل كثرة الفتن كثرت الأبواب التي فيها خير للخلق وبها يسهل وصول الحق إليهم، فكما أن الفتن كثيرة فأبواب الخير المفتوحة كثيرة والحمد لله، فالله يجعلنا من الشاكرين الذاكرين المنتفعين بكل هذه الفرص التي قد توفرت لنا.

(وأما الكافر أو المنافق أو الفاجر الَّذِي كالصنوبرة، فإنه لا يطمع فيه -لا أحد يتعدى عليه لأنه في حالة من القوة البدنية والقوة في السلطة- فلا الرياح تزعزع بدنه، ولا يُطمع في تناول ثمرته لامتناعها) عليهم. قال:

وفي كتاب (الزهد) للإمام أحمد عن عصام بن يحيى الحضرمي قال: شكى الحواريون إِلَى المسيح -عليه السلام- من ولع الناس بهم وبغضهم إياهم.

فَقَالَ المسيح: كذلك المؤمنون مبغوضون في الناس، وإنما مثلهم كمثل حبة القمح ما أحلى مذاقها وأكثر أعدائها!!

هذه الآثار الموجودة في كتاب الزهد من أهل الكتاب، ومثل هذه الآثار في أصلها لا تصدق ولا تكذب إلا إذا وافقت معاني عند أهل الإسلام، هذا المعنى يوافق ما عندنا، ما هذا المعنى؟ (شكى الحواريون إِلَى المسيح -عليه السلام- من ولع الناس بهم وبغضهم إياهم.) ولعهم: كلّما رأوهم؛ اعتدوا عليهم. فأصبحوا لهم كالمرمى!

(فَقَالَ المسيح: كذلك المؤمنون مبغوضون في الناس -لماذا؟- وإنما مثلهم كمثل حبة القمح ما أحلى مذاقها وأكثر أعدائها!!

فحبة القمح حلوة وكلٌ يريد أن يخطفها، وهكذا المؤمن، ما أحلى مذاقه وما أكثر أعداءه، الحلاوة آتية من جهة قلب المؤمن وإيمانه.

وقال كعب: في التوراة: (ما كان حليم قط في قوم إلا بغوا عليه وحسدوه).

هنا يظهر بيان ذلك أكثر، المنافق يتعامل مع الناس بشيء من الكبر، ويترفع عليهم؛ لذلك لا يستطيعون أن يدوسوا على جانبه؛ لأنهم لو قالوا له كلمة قال لهم عشرة، وإذا نظروا له نظرة يعرفون ماذا سيحصل لهم! وهم سليطو اللسان! من أجل هذا الناس لا يقتربون منه، في مقابل ذلك: الحليم الذي يصبر على الناس وحين يهجمون عليه لا يهاجمهم ويتعامل بغاية الأدب والحلم والتواضع، لا بد أن يبغوا عليه ويحسدوه! بمعنى أنه حين يكون متواضعًا ويعطيهم، ويكف لسانه عنهم فيرونه ضعيفًا فيقولون: (بأي مناسبة تكون لهذا مكانة؟ ليس له شخصية ولا حضور)! فهم الآن يجمعون عليه الأمرين: تكون لها منزلة وهو حليم فتواضعه يغرهم ويرون أن مثل هذا ليس

شخصية لائقة لتكون اجتماعية أو لها مكانة! فهذا هو المعنى بوضوح؛ أن المؤمن ليّن الجانب ولين الجانب يغر الكثير من الجهلاء أنهم يعتدون عليه.

في مقابل: أن المنافق والفاجر خلاف ذلك، هذا إذا خاصم فجر؛ بحيث أنك لا تنسى له أبدًا كم يؤذيك، مثلًا أنت لا تعرفه وهذه أول مرة تتكلم معه، أول ما تخاصمه يفجر في خصومته، فأنت لا تنسى أبدًا أنه بهذه الطريقة فلا تعود لتقترب منه أبدًا وتخاف منه.

في مقابل أن المؤمن يكون متواضعًا. وهنا نتكلم عن الشخصيتين أن لكل منهم قوة حضور ومنزلة ومكانة في المجتمع، المؤمن يكون حليم ليّن الجانب مع مكانته، فالناس يغترون بذلك فمن الممكن أن يتعدوا عليه بكل سهولة وأيضًا يحسدونه أن من أين له هذه المكانة؟

في مقابل أن الفاجر والمنافق أول ما يقتربون لا يعطيهم مساحة للاقتراب، مباشرة يعطيهم من هذه الأجوبة التي تسكتهم أبدًا.

فهذا يدل على حال المؤمنين ولينهم وتواضعهم وصبرهم على الناس قدر ما يستطيعون، وكل مسألة هنا تتصل بقوة الإيمان وبقوة الاحتساب، المؤمن يحتسب أكثر ويتصبر أكثر من أجل أن يكون كما يحب الله ويرضى وتظهر عليه آثار الإيمان. قال:

وكان خيثمة يقول كلامًا معناه: إِنَّ من الناس من أجتهد في نفعه وهو يجتهد في إيذائي، إنه لا يحب منافق مؤمنًا أبدًا.

هو الآن يحكي عن حالته، وخيثمة ممن له باع في العلم والمكانة، فهو يصف هنا طرفين غير متكافئين:

فخيثمة يجتهد في نفعه.

والآخر يجتهد في إيذائه.

وغالبا يكون الإيذاء بسبب الحسد. ثم يقرر (إنه لا يحب منافق مؤمنًا أبدًا) المنافق لا يحب مؤمنًا في يوم من الأيام! بل يحسده على مكانته، فهكذا يكون الحال؛ المؤمن متواضع يحب الخير لكل أحد وليّن الجانب، فهو كخامة الزرع، في مقابل أن المنافق متكبر ومترفع فهو مثل الأرزة.

وهذه المسألة تهمنا جدًا في الحالة النفسية؛ لأن أصل موضوعنا هو الصحة النفسية. فنود أن نؤكد على نقطة خطيرة بالنسبة للصحة النفسية: الإنسان لو بقي يقيس مكانته عند الناس وتصبح هي ما تسبب سعادته أو هي ما تسبب تعاسته، ومن ثمّ يرى أنه لو أحد اعتدى عليه يكدر عليه يومه وليلته! لو قال له كلمة أو آذه بأذية أو ظهر منه تصرف غير ملائم، أو استهزأ به أمام الناس، فينهار الآخر ويبقى متألمًا أوقات طويلة! هذا ليس حال المؤمن، المؤمن يفهم أن الناس لا بد أن يحصل منهم أذية وأن التواضع مع الناس لا بد أن يجلب حولك سفهاء الناس، الناس ليسوا على مستوى واحد، فهناك حاسدون وحاقدون، فلا تشكّل سعادتك وهناءك واستقرار بالك على أساس مَن حولك من الناس، الناس حولك حتى لو قلنا إنهم ليسوا حاسدين ولا حاقدين، لكن مَن حولك ليسوا كلهم مستقيمين في لسانهم، ليسوا كلهم الله أعطاهم منطق يتكلمون به، ليسوا كلهم أصحاب عقل راجح يعرفون ما يقولون وما لا يقولون، فحالتهم من جهة التواصل مختلفة. أنت يا مؤمن لا تشغلك منزلتك عند الناس، وليكن شاغلك منزلتك عند الله، هذا هو الشيء المطلق، وعند الناس كن حريصًا على ألا تضع نفسك في مواطن الشبهات، يعني لا تقل: (لا يهمني الناس وتفعل ما يسبب غيبتك وذمك عند الناس)!

اتفقنا من أول الكلام على الحرص أن التوازن في كل شيء. يجب أن يكون الإنسان متوازنًا.

ومن أهم أسباب حصول الاضطراب النفسي عند الناس: أنهم ما أن يلقوا الناس إلا ويجدون مستهزئين، ويجدون معتدين عليهم بالكلام ومنتقدين لهم، ومَن يعالجونهم يقولون لهم: (كونوا واثقين بأنفسكم) وتكلمنا سابقًا عن هذه الكلمة وقلنا إنه من المفترض أن نكون واثقين تمامًا برب العالمين ونفهم أن الله خلق الناس مختلفين، لسنا على سواء، والشيء الذي ينتقدونك فيه قِسه على ميزان الشرع:

- إن نقدوا عليك ذوقًا أو لون أو طعامًا قل لنفسك: (إن هذه الأمور لا يمكن أن يتفق الناس عليها، ولا يمكن أن يكون هناك مقياس واحد، وما يستقبحه الناس اليوم غدًا يمكن أن يستحسنوه، وما يستحسنوه اليوم غدًا قد يستقبحوه، وفي نهاية الأمر لا يمكن أن يكون رضاك عن نفسك ورضاك عن ربك مرهون بكلام الناس، إذا بقي مرهونًا بكلام الناس معناها أن أي أحد يستطيع أن يحطمك، أي أحد يستطيع أن يزيلك من مكانك، وقد مر معنا سابقًا أن الله في أواخر سورة المؤمنون قد أخبر أنه يوم القيامة سيأتي بأهل الكفر، وهم في تلك الساعة يريدون أن يخرجوا من النار فيذكرهم رب العالمين: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

فأنتم اتخذتموهم سخريًا، حتى أنسوكم ذكري. فهناك جماعة يجلسون للمؤمنين ليس لديهم شكل أو وضع أو حالة إلا أن يستهزئوا بهم، إن رأوا نساء

المؤمنين متسترات انتقدوا سترهم، إن رأوهم مطيعات انتقدوا طاعتهم، إن رأوهم على استقامة انتقدوا استقامتهم!

فإذا أردت أن تجري وراء انتقادات الناس، حين يقول أحدهم: (كأنك بعباءتك كالخيمة) ستنهارين وتبكين وتنظرين إلى نفسك في المرآة، وتفكرين (ماذا أفعل كي لا أصبح مثل الخيمة)! أنت بهذا قدرت كلامهم، أصبح كلامهم حكمًا عليك وأتوا لك بمرض نفسي، آذوك حتى وصلوا إلى شغاف قلبك! بل المؤمن قوي في إيمانه وقلبه، حين يأتي مثل هذا الكلام قوة القلب ترده، يمكن أن يؤذوا أذنك، قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾[1] مجرد أذية تأتي على آذانكم والمفترض أن تكون قلوبكم مطمئنة، لو علق أي أحد على أي شيء من خلقة الله فيك، فهو سفيه ما رضي عن خلقة الله، فهل تكون أنت سفيهًا مثله ولا ترضى عن خلقة الله؟! هذه قسمة الله، الطول والعرض والوزن، واللون والزوج والأبناء، كلها قسمة الله، رضينا بالله والعوض في جنات النعيم للمؤمنين، عن كل شيء نقص علينا في الدنيا.

فأنت يا مؤمن لا تكن عرضة لكلمة هذا والثاني يسقطك على الأرض وتبقى طوال الوقت تتطلع إلى الناس (أن امدحوني لأستطيع العيش)! لا، بل المؤمن يعيش بالإيمان لا بمدح أناس. ثم قد ورد في الحديث: «ما من عبدٍ إلَّا ولهُ صِيتٌ في السماءِ ، فإنْ كان صِيتُهُ في السماءِ حَسَنًا ، وُضِعَ في الأرْضِ ، و إنْ كان صِيتُهُ في السماءِ سيِّئًا ، وُضِعَ في الأرْضِ»[2] فأين تهتم أن يكون صيتك؟ في السماء. والله -عزّ وجلّ- يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١)

(١) آل عمران: ١١١.

(٢) أخرجه البزار (٩٢٠٢)، صححه الألباني.

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[1].

فأنت عندما تسير على الصراط المستقيم مهما كان لونك ووزنك ووضعك وعقلك، أنت تطيع الله في الأرض؛ الله يُثني عليك في السماء، أنت ترضى عن الله في الأرض؛ الله يرضى عنك في السماء. فلا بد أن تكون عندك حالة من التوحيد الصادق الذي يصحح تفكيرك، فقط واحد مَن يهمني رضاه المطلق، واحد -سبحانه وتعالى- ثم بعد ذلك مَن أمرني الله أن أرضيه سأرضيه ليرضى الله عني، أمرني بإرضاء الوالدين وطاعة ولي الأمر؛ سأفعل لأجل أن يرضى سبحانه وتعالى.

لا بد أن يزن التوحيد حياتنا، أما أن نبكي كل يوم ونحزن ونكون في حالة يُرثى لها من أجل أني سمعت كلمة من هنا أو كلمة من هنا ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ سيؤذونكم لكن كونوا أقوياء بالله وبطلب رضا الله، وأي أمر يأتيك لا بد أن تعرف أنه بلاء، وقد اتفقنا في أول يوم من هذه الدورة:

أن من أهم القواعد التي يجب أن تصححها نتيجة الإيمان: أن الله جعل الناس عليك فتنة وابتلاء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[2] لا بد أن تجيبوا رب العالمين، ولا بد أن تظهروا لرب العالمين أننا صبرنا على فلان وعلان فأعطنا الأجور يا رب العالمين على صبرنا على أذية فلان وعلان، وكل هذا إن رأيناه في الظاهر أنه امتحان صعب لكن في النهاية سيذهب ونتائجه ستثبت وتكتبها ملائكة اليمين ونجدها في الميزان ثقيلة حين

---

(١) الأحزاب: ٤١-٤٣.

(٢) الفرقان: ٢٠.

نلقى رب العالمين، الله يثبتنا ويرزقنا الإيمان ويرزقنا تصحيح التفكير على ما تعلمنا من الإيمان!

فالإيمان ليس في جهة والتفكير والنظر للناس في جهة أخرى، يجب أن يكونا شيئًا واحدًا، يجب أن تكون شخصًا واحدًا ولا تكن عندك حالة من الانفصام النكِد، ما تقرؤه في القرآن شيء وما تسمعه من سيرة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- شيء وطريقتك في الحياة والتفكير هذا شيء آخر! هذا ما هو إلا نتيجة ضعف إدخال المعاني إلى الإيمان، الله يعلمنا ويفهمنا ويزيدنا إيمانًا اللهم آمين!

إذًا عرفنا الفائدة الثانية واستفدنا منها وعرفنا أنها تحقق لنا الصحة النفسية، لا بد من أن تعطي الأشياء قدرها ولا يؤثر الكلام على نفسيتك ويهز كيانك، ابحث عن ثناء الله واعلم أن الابتلاء بالناس وبكلامهم سنة الحياة، حتى الأنبياء الكرام ما سلموا من الناس، وقد سُئلت عائشة -رضي الله عنها- في آخر حياة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- لما كان يصلي جالسًا في القيام: «هلْ كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يُصَلِّي وَهو قَاعِدٌ؟ قالَتْ: نَعَمْ، بَعْدَ ما حَطَمَهُ النَّاسُ.»[1] لكثرة ما تكالب عليه الناس ويسألونه ويكلمونه، ويحصل منهم الضغوط كأنهم حطموه، فحتى الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- أذية الناس قد طالته، هنا (حطموه) ليس شرطًا أن يكونوا آذوه لكن كثرة الضغوط وكثرة المسؤوليات وكثرة الدخول والخروج عليه أثّر عليه وعلى صحته -صلى الله عليه وسلم- وهو رسول، فما بالك أنت، لا بد أن يقع شيء من الأذية من الناس ولا بد من أن تقع الآلام ولا بد من الصبر وإذا الله -عزّ وجلّ- أعطاك مكانة في عائلتك أو أسرتك أو مجتمعك فاحمد ربنا، كل شيء لا بد أن يقابله

(١) أخرجه مسلم (٧٣٢).

ابتلاء، هذه المكانة كأن عليها ضريبة، كأنك ستدفع من الصبر ومن سماع الكلام. بذلك انتهينا من الفائدة الثانية، نبدأ في الفائدة الثالثة:

ومنها: أن المؤمن يمشي مع البلاء كيف ما مشى به، فيلين له فيقلبه البلاء يمنة ويسرة، فكلما أداره استدار معه، فيكون عاقبته العافية من البلاء وحسن الخاتمة، وتوفي ميتة السوء. فلهذا كان مثله كمثل السنبلة (تفيئها) الرياح يمنة ويسرة، فلا تضره الرياح كما في أمثال العرب: إذا رأيت الريح عاصفًا فتطامَن، أي: إذا رأيت الأمر غالبًا فاخضع له.

وقال الحكماء: لا يرد لم العدو القوي بمثل الخضوع له، ومثله مثل الريح العاصف يسلم منها الزرع للينه لها ومعها، ويتقصف منها الشجر العظام لانتصابها لها.

فإن الفاجر لقوته وتعاظمه يتقاوى عَلَى الأقدار، ويستعصي عليها، كشجرة الصنوبر التي تستعصي عَلَى الرياح، ولا تتطامن معها، فتسلط عليه ريح عاصف لا يقوى عليها، فتقلعه من أصله بعروقه فتهلكه.

وهذا كما حكى الله عن عاد قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ...﴾ فالمؤمن لَمَّا تواضع لعظمة اللَّه، وصبر عَلَى بلائه كانت عاقبته (الحسنى)، وسلم في الدُّنْيَا والآخرة من البلاء، وكانت العافية له.

والفاجر لما تكبر وتعاظم وتقاوى عَلَى أقدار الله عجَّل اللَّه عقوبته، فسلط عليه بلاء يستأصله، ولا يقدر عَلَى الامتناع منه، كالشجر العظام التي تقتلعها الرياح بعروقها.

هذه فائدة مهمة جدًا وهي: (أن المؤمن يمشي مع البلاء كيف ما مشى به) من أين أتى بها؟ أن هذه الشجرة اللينة؛ خامة الزرع، إذا أتتها الريح مالت، وبعد ذلك عندما تذهب الريح تستقيم، تصور عندما تنزل عليك أقدار الله، أنت تريد شيء ما، أو تذهب إلى مكان أو تفعل فعل، تصر على فعل، والأقدار كلها تجتمع على منعه، وأنت تبقى تحتال لتأتي به وهو يبتعد عنك، وأنت تصرف شيئًا من وقتك وطاقتك وقدرتك، ونحن نتكلم حتى عن الأمور التي تتصل بالدين، مثلا تريد أن تحج هذا العام وحاولت وحاولت، إلى حد معين ثم الإنسان يجب أن يرضى بما قسم الله ويعرف أن الله -عزّ وجلّ- رأى منه صدق إرادة الحج، واجتهد في الأسباب وما أتت، فما يكون منه إلا الرضا. ويعلم أن الله رأى منه صدق إرادة الحج، ويعلم أن الله سيسهله له في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة فيرضى عن الله، المشكلة أن الناس يظنون أنهم لو أصروا على الأمور سيصلون إليها، وتستورد أفكار في مثل هذه الأمور وأنه يجب عليك أن تصر وتصر، وهناك شعرة تزن المسألة، لا نريد الإهمال ولا نريد الإصرار الذي يؤدي إلى كدر الحياة، خصوصا حين يجد الإنسان نفسه وصل إلى الفشل فيتحطم ويجد نفسه قد انتهى! فأنت خذ من الأسباب ما يتيسر لك، واطلب من ربنا الأسباب وأن يهيئ لك، استخر الله وأقبل على الأمر، إذا أخذت بالأسباب اليسيرة المتناولة السهلة الممكنة ولم يأتك الأمر؛ وكّل الأمر إلى الله واعلم أن الله سيختار لك الوسيلة المناسبة في الوقت المناسب، بالطريقة المناسبة وكلما تذكرت أنك تحتاج إلى هذا الأمر، تذكُّرك لا يأتي لك بالكدر والنكد، توكّلك يأتي لك بزيادة النشاط في التوكل على الله وزيادة النشاط في قولك: (أنا توكلت عليك هيئ لي الأمر ويسر لي إياه) تكون عندك أولاد مثلًا وتريد أن يتزوجوا، وأحد المسؤوليات الهامة على الوالدين أن

يكفوهم هذه المؤونة العظيمة، الآن لو ولد ستخطب له، لكن لو بنت؟! فتبقى في الدعاء وتلمح لفلان وفلانة والأمور مقفلة! فأنت فعلت ما تستطيع فعله، بقي فقط أن تدعو دون أن يكون في نفسك أي نوع من اليأس، وبهذا تحصل حالة من التوازن.

آخذ بالسبب المتوفر فإذا ما تحقق لي المراد بقي المراد معلقًا في قلبي حتى يكون سببًا في كثرة الدعاء والسؤال والرجاء، وكلما ذكرت دعوت ربنا لكن تصر وتصر ثم لا تجد؛ تتحطم وتحصل لك أحزان وتقول: (أنا دائمًا ليس لي نصيب ولا لي حظ، كلما أردت شيئًا يُعقد ولا يتيسر) لا، بل ما يتعقد اليوم يرى الله منك توكلًا عليه فييسره لك غدًا. وما تيسر اليوم هذا موعده، وما لم يتيسر اليوم ولا غدًا فاصبر، إذا تيسر فالحمد لله، وإذا فات أوانه فليس قدرك.

المهم أن تعامل المسائل المرغوب بها بالطريقة اليسيرة السليمة التي تسهل عليك الحياة ولا تجعلها معقدة، ولذلك متى كفأتك الريح تتطامَن معها. تريد الخروج اليوم والظروف المحيطة ليست على ما يرام، فاصبر، لكن أن تصر؛ ستأتي بالمشاكل وراء بعضها! تصور هذه الصورة الصغيرة على الحياة كلها، عندما ترى أحوالًا هيأها الله اقبل بها، وهنا لا نتكلم عن القبول بالمنكر وما يتبعه، لكن نقصد أنه عندما تتهيأ لك أمور تتصل بحياتك وأقدارك، وضربنا مثالًا أحيانًا شيء فيه طاعات، تريد أن تذهب إلى العمرة أو تحج أو تذهب إلى المدينة سِر مع ما يقدر الله والله ينظر إلى قلبك، إذا أردت الخيرات سيعطيك الله أجرها حتى لو لم تفعلها.

فكن طامعًا في رب العالمين، وإذا لم تذهب اليوم تذهب غدًا، وإن لم تذهب في هذه السنة ستذهب في السنة التي تليها، في الوقت الذي يشاء الله، يرى

منك رغبة وصبرًا ودعاء وكلما تذكرت لا تقل: (ما لي حظ وتندب) بل قل: (يا رب ارزقني) ويبقى الأمل والرجاء في نفسك حتى لا تغلق نفسك عليك ولا تشعر بالتحطم وأنهم ذهبوا ولم أذهب وصار لهم ولم يحدث لنا!! لا، بل يجب أن تقبل وتسير على ما قدر الله. ننتقل إلى الفائدة الرابعة:

ومنها: أن الزرع وإن كانت كل طاقة منه ضعيفة ضئيلة؛ إلا أنه يتقوى بما يخرج معه وحوله ويعتضد به بخلاف الشجر العظام، فإن بعضها لا يشد بعضًا، وقد ضرب الله تعالى مثل نبيه -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه بالزرع لهذا المعنى، قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى﴾[1].

وقوله: ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: فراخه.

﴿فَآزَرَهُ﴾ أي: ساواه وصار مثل الأم وقوي به،

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي: غلظ.

﴿فَاسْتَوَى﴾ عَلَى سوقه جمع ساق.

فالزرع مثل النبي -صلى الله عليه وسلم- إذ خرج وحده فأمده بأصحابه وهم شطأ الزرع، كما قوى الطاقة من الزرع بما ينبت منها حتى غلظت واستحكمت.

وفي الإنجيل: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع.

هذه أحد الفوائد في تشبيه المؤمن بخامة الزرع:

(ومنها أن الزرع وإن كانت كل طاقة منه ضعيفة ضئيلة) كل جزء منه، كل نبتة ضعيفة ضئيلة تكفأها الريح.

---

(١) الفتح: ٢٩.

(إلا أنه يتقوى بما يخرج معه وحوله ويعتضد به) هو بنفسه ضعيف لكن ينمو حوله مثله فيتقوى بعضه ببعض.

(بخلاف الشجر العظام، فإن بعضها لا يشد بعضًا) لا تنمو في مكان متقارب أصلًا، لكن الزرع ينمو في مكان متقارب.

(وقد ضرب الله تعالى مثل نبيه -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه بالزرع لهذا المعنى) لأن الزرع يتعاون بعضه مع بعض لكن الشجر العظام ليس بينهم تعاون، نرى الزرع وحالته في الآية:

قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى﴾.

وقوله: ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾؟ أي: فِراخه -الصغيرة-.

﴿فَآزَرَهُ﴾ أي: ساواه وصار مثل الأم وقوي به، هذه الزرعة الأولى اللينة وحولها مثل الفراخ، الباقي نبت فازداد نباته علوًا فقوّى النبتة الأساسية.

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي: غلظ، ﴿فَاسْتَوَى﴾ عَلَى سوقه جمع ساق.

فالآن تصور المثل للنبي-صلى الله عليه وسلم-:

(فالزرع مثل النبي -صلى الله عليه وسلم-) أول الزرع هو النبي (إذ خرج وحده فأمده بأصحابه وهم شطأ الزرع) يعني الزرع الذي حوله، فقوّى الله النبي بهذا الزرع، أما الشجر العظام فلا يحدث هذا له.

وعلى ذلك المؤمن حين يكون كخامة الزرع يتعاون هو والمؤمنون حوله، يصبح سهلًا عليه وليس مثل شجرة الصنوبر العالية المتكبرة، الزرع يسير وسهل، يتعاون مع من حوله ويشد بعضهم بعضًا وبهذا يشتد الإيمان واليقين، وانظر كيف أن في الدين من حقوق المؤمن على المؤمن أنه إذا مرض يزوره، وإذا مات له ميتًا يعزيه، وهذا كله من هذا المعنى، أنك لا تكون وحدك

في المصاب، وزيارة المريض لها أجر عظيم عند رب العالمين، والملائكة تصلي على زائر المريض، لأجل أن يدفع المسلمين أن يزور بعضهم بعضًا فيتعاونون، ويتقوون، والمؤمن وهو في مصابه حين يرى المؤمن يقوّيه؛ يقوى حاله ويقوى بدنه وينشرح صدره، وهكذا حال المؤمنين، وهكذا كان حال الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- مع أصحابه. سنرى العكس، المنافقين:

وأما المنافقون فقلوبهم مختلفة كما قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[1]

أنت تحسبهم جميعًا، لكن في الحقيقة قلوبهم شتى، في الظاهر كأنهم صف واحد لكن في الباطن:

فأهواؤهم مختلفة، ولا ولاية بينهم في الباطن، -هذه هي الحقيقة- وإنما بعضهم من جنس بعض في الكفر والنفاق.

ننتقل إلى الفائدة الخامسة:

ومنها: أن الزرع ينتفع به بعد حصاده، فإنه يحصده أربابه، ثم يبقى منه بعد حصاده ما يلتقطه المساكين، وترعاه البهائم وتأكله الطير، وربما استخلف بعضه فأخرج منه ثانية، ويبقى منه من الحب ما ينبت مرارًا.

وهكذا مثل المؤمن يموت ويخلف ما يُنتفع منه، من علم نافع وصدقة جارية وولد صالح يُنتفع به.

وأما الفاجر فإنه إذا انقلع من الأرض لم يبقَ فيه نفع بل ربما أثّر ضررًا، فهو: كالشجرة المنجعفة لا تصلح إلا لوقيد النار.

---

(١) الحشر: ١٤.

هذه الفائدة مهمة جدًا، الزرع نفسه لو حصده أهله تبقى منه أشياء في الأرض، هذه الأشياء التي تبقى يمكن يحصل أن يأتي مسكين ويأخذها ويأكل منها، ويمكن أن يستفيد منها الطير.

فالمؤمن إذا مات يترك وراءه الخيرات؛ ولدًا صالحًا يدعو له أو علمًا نافعًا أو صدقة جارية، إلى آخر ما يترك، فالمؤمن تحصل له حالة من الانتفاع بنفسه وحتى بعد مماته أما الفاجر فإذا انقلع من الأرض لا يترك شيئًا.

ننتقل إلى الفائدة السادسة:

ومنها: أن الزرع في حمله مبارك، كما ضرب الله مثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء.

وليس كذلك الشجر لأنّ كل حبة مما يغرس منه لا تزيد عَلَى نبات شجرة واحدة منها.

معنى ذلك أن المؤمن يشبه ما ضرب الله مثل، أن حبة واحدة يزرعها في الأرض تخرج منها سبع سنابل، تخرج من كل منها مائة حبة، فمعناها أن المؤمن في حال من المضاعفة لأجوره والانتفاع بأعماله، في مقابل أن الفاجر لا يكون هذا حاله.

ننتقل إلى الفائدة السابعة:

ومنها: أن الحَب الَّذِي ينبت من الزرع هو قوت الآدميين، وغذاء أبدانهم، وسبب حياة أجسادهم، فكذلك الإيمان هو قوت القلوب وغذاء الأرواح وسبب حياتها، ومتى فقدته القلوب ماتت، وموت القلوب لا يرجى معه حياة أبدًا، بل هو هلاك الدُّنْيَا والآخرة، كما قيل:

لَيسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ ... إِنَّمَا الميْتُ مَيِّتُ الأحْيَاءِ

فلذلك شبه المؤمن بالزرع حيث كان الزرع حياة الأجساد، والإيمان حياة الأرواح.

وأما ثمر بعض الأشجار العظام كالصنوبر ونحوه، فليس له كبير نفع، وربما لا يتضرر بفقده.

فكذلك مَثَّل الفاجر أو المنافق بهذه الشجرة لقلة نفع ثمرها.

معنى ذلك أن المؤمن وسنابله التي فيها الحَب ينتفع منها كل الناس، أما الصنوبر كشجرة فقليل الانتفاع منها، وإذا فُقدت فلا يخسر الناس شيئًا، كذلك حال المؤمن وجوده وإيمانه ينفعه وينفع الناس به، أما الفاجر والمنافق فما له كثير نفع للناس حوله. هذا ما تيسر من الرسالة والحمد لله رب العالمين.

جزاكم الله خيرًا

السلام عليكم ورحمة الله